دكتور أحمد عبد الرحمن

١٨ لابد من دين الله لدنيا الناس

من أخطاء المستشرقين وخطاياهم

نقد الإستشراق - دراسات تطبيقية

١ - كاردة فو
٢ - توشيهيكو إيزوتو
٣ - فريشيوف شون
٤ - ماسينيون
٥ - الصياغات الجديدة لتراث الإسفاف

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

المستشرقون لهم ثلاثة مواقف بارزة من الإسلام : فريق منهم يكتب عن الإسلام كتابات محايدة وفريق ثان يكتب عن الإسلام كتابات معتدلة منصفة وفريق ثالث يكتب عن الإسلام بروح الحقد والحسد والجهل أو التجاهل ·

هـذا الفريق يتصـدى لكتابات نفر منهم الأسـتاذ الدكتور أحمـد عبد الرحـمن ، فى فرع مهم من كتاباتهم المسمومة وهو مجال الأخلاق الإسـلاميـة ، يحرفون صورتها ، ويشوهون جمالها ، ويغمطون حقها ·

والأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحمن داعية إسلامى معروف بصدقه وإخلاصه فى الدعوة ، وقد تخصص فى هذا المجال « الأخلاق الإسلامية » ، وله فيها باع طويل ، وسيرى القارىء كيف واجه كاتب هذه الرسالة مزاعم بعض المستشرقين وكشف عن زيفهم ، ثم كيف انتصر للإسلام ، دين الله الذى لابد منه لدنيا الناس ·

عبد العظيم المطعنى

(١)
فحص نقدى لمادة أخلاق
فى دائرة المعارف الإسلامية
للمستشرق كارا ده ڤو

مدخـــل

لا يسع أى باحث منصف أن يوافق على أن دراسات المستشرقين « نماذج فى العمق والبحث والتحقيق »[1] .

وإن الحكم على المستشرقين ودراساتهم ومناهجهم دفعة واحدة لهو تعسف لا يسوغه علم ولا خلق ؛ فلكل جهوده التى ينبغى أن تقدر بقدرها ، وأن توزن بميزان النقد العلمى الموضوعى الذى لا يعرف الحيف .

وهذا هـو المنهج الـذى اعتزم اصطناعه فى هـذه الدراسة النقدية لمادة « أخلاق » التى كتبها المستشرق الكبير « كارا ده ڤو » فى دائرة المعارف الإسلامية ، ومعلوم أن هذا المنهج يحتم بيان أى خطأ ، وتصويبه دون وجل أو تسويف ، ولكن هذه الحقيقة الأولية لا تعنى أن يكون هذا المقال « حملة شعواء » على « كارا ده ڤو » ودائرة المعارف الإسلامية ، ولا هى محاولة للنيل من جهوده أو من جهود غيره من المستشرقين ، إلا بقدر ما يثبت فيها من خطأ أو زيف !

وإنى لأرجو أن أفلح من خلال هذا الفحص فى التعريف بجهود عدد من الفلاسفة المسلمين فى مجال الأخلاق الإسلامية ، وفى الوقوف على بعض الحقائق الأساسية التى تشكل الملامح العامة للنظام الأخلاقى فى الإسلام ، وهذا هو العنصر الإيجابى فى هذا البحث ، أو هكذا أرجو أن يكون .

فماذا قال « كارا ده ڤو » ؟

لقد قرر الرجل أن :

١ - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يشتملان على « علم » أخلاقى ، وأن ما فيهما بشأن الأخلاق مجرد « نبذ » ، وأن علم الأخلاق شىء مغاير لهذه النبذ التى تتناثر فى الشعر والأدب كما تتناثر فى القرآن والسـنـة ؛ فعلم الأخلاق عنده تراث خالص لليونانيين .

---

(١) هذا رأى مترجمى دائرة المعارف الإسلامية : المقدمة ص ٤ .

٢ - وأن ابن المقفع ، وإخوان الصفاء ، وأحمد بن مسكويه ، والـغـزالى ، والطوسى هم أول وأهم الأخلاقيين العرب على الترتيب .

وهذا هو نص كلمة « كارا ده ڤو » :

« أخلاق جمع خلق ، والأخلاق هى صفات الإنسان الأدبية ، وعلم الأخلاق هو هذه الصفات معروضة على وجه تعليمى ، ونجد كثيراً من النبذ عن الأخلاق فى مختلف فروع المعرفة : نجدها عند الشعراء ونجدها فى الأمثال والقصص ، ولاحاجة بنا إلى القول إننا نجدها فى القرآن وتفاسيره ، وفى الأحاديث ، ونجدها كذلك عند الفقهاء الذين تبدو الأخلاق عندهم بحثاً فى حالات الضمير الجزئية ، ونجدها أخيراً عند المؤرخين والإخباريين الذين يتحدثون عن الأخلاق كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، ولكن علم الأخلاق منفصل عن كل هذا ، قائم بذاته ، وليس مقتطفاً من مختلف المصنفات ، وهو فى الحقيقة علم يتصل بالمتوارث من الفلسفة اليونانية »[١] .

هذا كلامه عن القضية الأولى .

أما عن القضية الثانية فقد قال :

« وأول أخلاقيى العرب هو ابن المقفع - المترجم المشهور لكتاب كليلة ودمنة ، وأهم الأخلاقيين بعده : إخوان الصفاء ، وابن مسكويه ، والغزالى ، ونصير الدين الطوسى »[٢] .

فهذا المستشرق الذى تصدى للكتابة عن الأخلاق الإسلامية ، والذى يفترض فيه التضلع فيها والتعمق فى أسرارها ، يقرر أن فى القرآن والسنة نبذاً عن الأخلاق .

ولعلى لا أكون بعيداً عن الصواب إن قلت إن النبذ تعنى هنا النصائح الخلقية المتفرقة من أوامر ونواه ، وهى تلك التى تتناثر بكثرة فى الشعر العربى الجاهلى والإسلامى ، وفى الحكم والأمثال على السواء كما ذكر « ده ڤو » نفسه .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ؛ ١ / ٥٢١ .

(٢) نفسه؛ ١/ ٥٢٤ (ولن نتكلم عن الطوسى لأنه تابع لخط مسكويه الفلسفى ، وما يصدق على مسكويه يصدق عليه) .

وإثبات وجود « النبذ » ، مع نفى وجود علم للأخلاق ، هو التعبير المهذب عن خلو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من المبادىء الأخلاقية العامة التى يمكن أن تشكل نظاماً أو نسقاً أخلاقياً ، فالنبذ لن تزيد عن أن تكون جزئيات ، أعنى أوامر ونواهى جزئية ، أو وصفاً لحالات الضمير الجزئية - حسب تعبير « ده فو » ؛ والعلم الأخلاقى ليس أوامر أو نصائح جزئية ، ولكنه مبادىء عامة من شأنها أن تشكل مذهباً أو نظاماً ، وعلى رأس هذه المبادىء جميعاً يضع العلم الأخلاقى مقصداً أعلى أو غاية قصوى لكل سلوك خلقى إيجابى ؛ وهذه الغاية القصوى هى التى تضفى القيمة الخلقية على السلوك البشرى أو تجرده منها ، بقدر اتساقه مع مقتضياتها أو تصادمه معها ، وهى التى تصبغ كل المبادىء الجزئية بصبغتها ، وتحكمها ، وتضبطها ، وتقودها فى نهاية المطاف إلى تحقيق تلك الغاية القصوى ، أو الدنو منها .

فالغاية القصوى فى مذاهب اللذة هى اللذة ، وفى مذاهب السعادة هى السعادة ، وفى مذاهب المنفعة هى المنفعة ، كما تنطق بذلك الأسماء نفسها ، إذ الأسماء فى الحقيقة مشتقة من الغايات القصوى للمذاهب .

والنبذ الجزئية - فضلاً عن هذا - ربما تكون مهوشة ، مضطربة ، متناقضة بحيث تحث إحداهما على العمل لنيل السعادة ، وتنصح أخرى بالعزوف عنها ، أو تحض إحداها على الإيثار، وتزين أخرى الغلو فى الأنانية !

ولا أظن أننى بحاجة إلى التنبيه إلى أن مثل هذه التقريرات والقضايا هى فى غاية الأهمية والخطورة بالنسبة لنا نحن المسلمين ، وبالنسبة لكل مشتغل بالأخلاق الدينية ، وبالنسبة لكل من يحرص على الحقائق المجردة .

● **بالنسبة لنا** : كل حكم بوجود علم ما أو عدم وجوده فى القرآن الكريم والسنة المطهرة لابد أن تكون له مثل هذه الخطورة البالغة .

وأما القضية القائلة بأن ابن المقفع وإخوان الصفاء وأحمد بن مسكويه هم أول أو أهم الأخلاقيين العرب فخطورتها تكمن فى توجيه الدارسين ، والطلاب منهم خاصة ، وجهة غير صحيحة ، وليس فى مجرد رفع ابن المقفع أو إخوان الصفاء أو أحمد بن مسكويه إلى مكانة أسمى من مكانتهم العلمية .

إن الباحثين من الطلاب ينطلقون عادة ابتداءً من دوائر المعارف وما تقدم

لهم من معارف أولية وما تذكر من أسماء ومصادر مختلفة فإذا انطلق باحث مبتدىء فى الأخلاق الإسلامية من ابن المقفع وإخوان الصفاء وأحمد بن مسكويه فإنه سينحرف منذ البداية نفسها عن الطريقة السديدة ، ولابد أن ينتهى به الأمر إلى الحيرة بين ما يجد لدى هؤلاء من نظريات أخلاقية يونانية ، وما يجد فى القرآن والسنة من مبادىء وتعاليم ونظم إسلامية .

بل إن نقطة البداية الخاطئة هذه قد قادت حقاً أسماء كبيرة فى عالم الفكر الإسلامى إلى الابتعاد عن أخلاق الإسلام كما رسمها القرآن وشرحتها السنة ، وزجت بهم ، أو قل أغرقتهم ، فى فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، والمثير بعد هذا هو إصرارهم على أن ما قدموا هو الأخلاق الإسلامية .

● **والفحص النقدى للقضية الأولى يحتم علينا أن نجيب عن الأسئلة التالية :**

(أ) ما تعريف علم الأخلاق ؟

(ب) ثم : هل فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من هذا العلم شىء ؟

(جـ) وأخيراً : هل رسما للسلوك الخلقى غاية قصوى ؟

والحق أن هذه الأسئلة الثلاثة سؤال واحد ، لأن علم الأخلاق هو مجموعة مبادىء عامة ، وغاية قصوى ضابطة وموجهة لها .

إن علم الأخلاق ، فى أبسط تعريف له ، هو الإجابة عن السؤال : ماذا يجب أن أفعل ؟

لكن الإجابة التى تعد علماً بحق هى تلك التى تصلح أن تكون معياراً ، أو قسطاساً أو مبدءًا ، من شأنه أن يوجه السلوك الخلقى فى جميع المواقف ، ويهديه ، ويضبطه ، وفى ضوئه يمكننا أن نزن الأفعال والغايات والأشخاص والنظم الجزئية وزنا أخلاقياً .

فإذا كانت الإجابة ، مثلاً - أن يعمل المرء لتحقيق أكبر قدر من المنفعة لأكبر عدد من الناس كما أراد (جون ستيوارت مل) كان السلوك الخلقى الإيجابى القيم هو ذلك الذى يحقق هذا الهدف ، وكان السلوك السلبى أو المرذول هو ذلك الذى يغفل المنفعة العامة ويتجه صوب الأنانية ، أو عرقلة منافع الآخرين .

وإذا كانت الإجابة : اعمل بحيث يمكن أن يكون سلوكك قاعدة عامة ، كما أراد « عما نويل كانت » كان إمكان تعميم السلوك هو الخاصية المميزة للسلوك الخلقى الإيجابى ، وكانت استحالة التعميم دليل سلبيته وافتقاره إلى الخلقية .

فهل فى القرآن الكريم والسنة المطهرة إجابات عامة كهذه التى عرضنا نموذجين لها ؟ هل فيهما مثل هذه الإجابات عن السؤال : ماذا يجب أن أفعل ؟ .

أجل ، هذه الإجابات موجودة فى كتاب الله وسنة نبيه ، ومعروفة للمشتغلين بالعلوم الإسلامية ؛ وهى إجابات متميزة وأصيلة ، تباين الإجابات البشرية .

١ - فالغاية النهائية أو القصوى لسلوك المسلم محددة بصورة حاسمة ، وهى : سعادة الدارين ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؛ وهذا التحديد يشكل جوهر الإجابة المنشودة لذلك السؤال الكبير .

قال عز وجل : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾(١) .

فالقرآن الكريم ، أولاً ، ينكر على أصحاب مذهب اللّذة والسعادة الدنيوية قصور مذهبهم وضيق أفقهم ، ويأمر الرسول والمؤمنين بالإعراض عنهم وعن مذهبهم : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾(٢) .

ثم يعقب على هذا المذهب القاصر ببيان الغاية القصوى السديدة التى ينبغى أن يستهدفها السلوك الخلقى الإسلامى السديد ، وهى سعادة الدارين .

إن سعادة الدارين هى الغاية القصوى للعمل الخلقى ، والتشريعى ، والتعبدى أيضاً ، ومن هنا كانت القسطاس الذى يضفى القيمة ، أو يخلعها ، على العمل .

---

(١) البقرة : ٢٠٠ ، ٢٠٢ .   (٢) النجم : ٢٩ .

وكما أنكر الإسلام قصور مذهب السعادة الدنيوية ، كذلك أنكر الفهم الخاطىء للسعادة الأخروية باعتبارها متناقضة مع السعادة الدنيوية ، كما ذهب إلى ذلك خطأ بعض النساك والرهبان .

قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[1] .

فالقرآن الكريم يأمر بالتزين ، والتمتع بالطعام ، دون إسراف ، ويستنكر على كل أحد تحريم ذلك .

ولا ريب أن التزين والطعام عنصران أساسيان فى السعادة الدنيوية المادية الحسية .

● والسنة النبوية تشرح هذا المبدأ القرآنى العام :

فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، حتى يصيب منهما جميعاً ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كلا على الناس »[2] .

وعلى أساس من هذا المبدأ العام قرر فقهاء المسلمين أن : « المنفعة أو المصلحة تصلح مقياساً ضابطاً لكل ما هو مأمور به فى الدين أو منهى عنه ، كما أنها فى نظر الفلاسفة الذين يقررونها : مقياس الرذيلة والفضيلة فى الأخلاق ، والعدل والظلم فى القانون »[3] .

٢ - وفى السنة الشريفة - أيضاً - مبدأ عام من شأنه أن يكفل السعادة الدنيوية أورده رسول الله ﷺ فى صبغة قريبة إلى الأفهام بحيث لا يخطىء فهمه العوام .

قال عليه الصلاة والسلام : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، ونحن البشر ، بحكم الطبع والجبلة ، نحب أن يعاملنا الآخرون بكل عدل وإحسان وفضيلة ومن ثم كان علينا ، إذا وفقنا إلى طاعة رسولنا ، أن نعاملهم

---

(١) الأعراف : ٣١ - ٣٢ . (٢) رواه ابن عساكر .

(٣) أبو زهرة ؛ مالك ؛ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

بمثل ذلك ، سواء فهمنا معنى العدل والإحسان والفضيلة فهماً نظرياً أو لم نفهم ، فالعمل فى الإسلام هو الهدف من وراء العلم ؛ والعلم دون عمل حماقة فاضحة ! وإن أمكن إنجاز العمل بعلم يسير أو توجيه مباشر ، دون تقعر نظرى وتعقيد ذهنى ، فبها ونعمت .

وأحسب أننى لا أجاوز الإنصاف إن قلت إن هذا المبدأ النبوى الأخلاقى يفوق نظرية « كانت » القائلة : اعمل بحيث يمكن أن يكون سلوكك قاعدة أخلاقية عامة ، فالفرد المسلم يستطيع أن يدرك بغير مشقة مكمن الخلقية ومناطها فى أى سـلوك فى ضوء المبدأ النبـوى السالف الذكر ، بينما قاعدة « كانت » تحتاج إلى تقليب نظر لمعرفة ما إذا كان تعميم السلوك ممكناً أو غير ممكن .

وذلك أمر لا يطيقه إلا الفلاسفة أو أشباههم .

٣ - وحدد القرآن الكريم والسنة المطهرة أدنى درجة مقبولة من السلوك الخلقى للمسلم فى تعامله مع الآخرين ، وجعلها مدار التشريع ، وهى درجة العدل على ضخامة وحيوية المساحة التى يشغلها التشريع من حياة البشر أفراداً وجماعات .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(١) .

هكذا كان القرآن واضحاً وحاسماً فى تقرير الهدف الكبير - ولا أقول الوحيد - للرسل والرسالات ، وجزئيات الحياة الأخلاقية والتشريعية لابد أن تحترم هذا المبدأ ، مبدأ العدل ، وأن تكتسى بروحه ، وإلا فإنها لابد أن تهوى إلى وهاد الرذيلة وتفقد الشرعية .

وأوضح القرآن الكريم معنى العدل أيضاً .

قال جل شأنه : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾(٢) .

---

(١) الحديد : ٢٥ .　　(٢) النجم : ٣٨ - ٣٩ .

وقال أيضاً : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾(١) .

ومعنى هذه الآيات أن العدل هو : أن ينال كل إنسان ثمار عمله ، وأن يتحمل كل فرد تبعة خطئه ، والظلم ، تبعاً لهذا ، هو : أن يغتصب إنسان ثمار عمل غيره ، أو أن يلقى تبعة خطئه على كاهله .

هذه هى أدنى درجة مقبولة من السلوك الإسلامى الأخلاقى ، لأن ما دونها ليس سوى الظلم الذى حرمه الله عز وجل على نفسه ، وعلى عباده ، تحريماً مطلقاً قاطعاً .

٤ - والإسلام لا يقبل من المسلم الوقوف عند حدود العدل إلا إذا كان عاجزاً عن تجاوزها صعداً إلى مرتقى أعلى يحتم عليه البذل من ثمار عمله ؛ وهذا هو مستوى الفضل أو الفضيلة الذى يعلو على حدود العدل المجرد .

نص القرآن الكريم على هذا المبدأ منذ الآية الثالثة من ثانية سور القرآن .

قال تعالى : ﴿ الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَرَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٢) .

فأول صفات المؤمنين - إذاً - الإيمان ، ثم العبادة ، ثم الإنفاق ، والإنفاق بمعناه الواسع عطاء من المال والجهد والحب والرحمة ، وتلك هى الفضيلة الخلقية الإسلامية ، فصلب النظام الأخلاقى فى الإسلام هو أن يعطى المرء المسلم غيره من ثمار عمله ، وهذا الإيثار هو الذى يعد بحق الخاصية الفارقة لأخلاق الإسلام ، والذى بدونه لا يمكن تصور فضل أو فضيلة أو قيمة خلقية ، لأنه بدونه لن يتبقى لدينا غير السلوك الأنانى الذى يدور حول الذات ولا يأبه بالآخرين .

٥ - ووضع الإسلام مبادىء عامة تصحح السلوك الخلقى وتضمن له القيمة الخلقية ، فهو - أولاً - قد جعل الموقف الباطن ، أو النية ، الشرط المعول عليه فى اكتساب القيمة الخلقية .

---

(١) فاطر : ١٨ .   (٢) البقرة : ١ - ٣ .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى »[2] .

وحث الإسلام المسلمين بقوة على التزام التجرد المطلق فى إخلاص النية لله تعالى ، حتى قرر الرسول ﷺ أن : « يسير الرياء شرك » .

هذا الإخلاص ، مع فروق عديدة ، يعدل مبدأ الأخلاق الكانتية ، أعنى مبدأ الواجب ، ويتفوق عليه من حيث استناده إلى العقيدة الدينية والإيمان بالله المطلع على السرائر .

٦ - والإسلام حرص على ضمان النماء والثراء للحياة الخلقية ، فشدد على وجوب الممارسة العملية للقيم الأخلاقية وتحرى بلوغ نتائجها الإيجابية الخيرة ، وتجنب الوقوف عند مجرد النوايا الطيبة أو الجدل النظرى العقيم حول المفاهيم الأخلاقية ، ولا حاجة بنا إلى إيراد الشواهد القرآنية على صحة هذا الضمان الإسلامى العظيم فكلنا يعرف حرص القرآن البالغ على اقتران الإيمان بعمل الصالحات من عبادات ومعاملات ، « تكرر اقتران الإيمان بعمل الصالحات حوالى سبعين مرة فى آيات القرآن الكريم »[3] ، وفى الأصول الإسلامية أن الإيمان دون عمل لا يجزىء ، أى لا يسقط وجوب العمل عن المسلم ، وعند ابن تيمية ، وأهل السنة عامة ، أن القول بأن النية تجزىء كفر « مع انتفاء المانع القسرى بطبيعة الحال »[4] .

ولقد قال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « ... من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف »[5] ، فالنية دون عمل لها عشر القيمة ، وللعمل تسعه أعشارها .

---

(١) الشعراء : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) ابن ماجه .

(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٤) كتاب الإيمان ؛ ص ٣٠٧ .

(٥) متفق عليه .

وبهذا يمكننا القول بأن أخلاق الإسلام تضم مزايا المذهب البرجماتى بين دفتيها مع رد ما فيه من غلو وضيق أفق يتمثل فى كلفه بالنتائج دون الموقف الباطن والغيرية .

فهل هذه المبادىء كلها ، وهى قليل من كثير ، مجرد نبذ كما رأى المستشرق الكبير ؟

هل هذا النظام الأخلاقى الأصيل الفريد الذى يجمع مذاهب السعادة والواجب ويصهرها فى بوتقة واحدة وينشىء من مكوناتها الإيجابية نظاما عضويا متماسكاً هو مجرد نُبذ ؟

أليس فى كل هذه المبادىء الأخلاقية ما يمكن أن يسمى علماً أخلاقياً ؟

إننى لا أنشد من هذه التساؤلات ومن هذا البحث كله أن أبرهن على أن فى القرآن والسنة علماً أخلاقياً من الطراز اليونانى الفلسفى .

إن هدفى هو إبراز حقيقة وجود علم أخلاق إسلامى ، ونظام أخلاق إسلامى متسق ، على خلاف ما قرر المستشرق كارا ده فو .

ولعل من المفيد ، والطريف أيضاً ، ألاّ ندع هذه النقطة تمر دون عقد مقارنة سريعة بين أخلاق الإسلام وأخلاق الفلسفة كى ندرك شيئاً من أوجه الأصالة والتفوق فى نظام الإسلام .

إن مذاهب الأخلاق الفلسفية ، يونانية قديمة وأوربية حديثة ومعاصرة ، من نفعية وبرجماتية ، تتبنى وجهات نظر جزئية ، لأن نظرتها إلى الإنسان أصلاً جزئية ، فهى شديدة الكلف باللذات الجسدية والمنافع المادية ، ومغرقة فى الفردية والأنانية ، على حساب السعادة الروحية والوجدانية التى لا يمكن أن يكفلها غير مبدأ الإيثار « الذى لا يمكن أن يُسوَّغ بغير الإيمان بالله والجزاء الأخروى » .

ولعل هذا هو السر الدفين وراء التعاسة التى تخيم على حياة المجتمع الأوربى ، على الرغم من نجاحه الساحق فى ميادين التقدم المادى ، ولينظر من شاء فى مؤلفات « ألكسس كاريل » و « البرت شفيتزر » و « نيكولاى هارتمن » ، والوجوديين والعبثيين وغيرهم ، وإن ظواهر هذه التعاسة وأسبابها

لبادية للعيان : قلق وأمراض نفسية ، وانتحار جماعى « ٩٨٠ أمريكياً انتحروا دفعة واحدة فى معبد الشعب ! » وفردى ، و ٥٠ مليون قتيل فى الحرب العالمية الثانية ·

هذه المذاهب الأخلاقية النفعية التى غرس بذورها الشريرة فى تربة الثقافة الغربية فلاسفة اليونان الكبار ، (إبيقور على وجه الخصوص) والتى وصفها « ده فو » بأنها (دون غيرها) العلم الأخلاقى الصحيح ، كانت على الدوام الباعث والمحرك وراء الغارات الأوروبية الاستعمارية الشرسة على معظم شعوب العالم الثالث التعس ! وكان إبيقور على الدوام هو القائد الخفى الذى استنفر الجيوش الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية كى تنهب وتسلب وتعربد ، وصولاً إلى اللذة والسعادة الحسية التى وضعها مذهبه فى أعلى المراتب ·

لم تستطع الثقافة الأوربية أن ترسم للجيوش الأوربية غايات أخلاقية غير تلك التى حددها إبيقور ، ولم يفلح الضمير الأوربى فى إزاحتها أو زحزحتها عن مكانها الرفيع فى سلم القيم الأخلاقية حتى اليوم ·

ولا يضير الإسلام فى شيء أن لا يوجد مثل هذا العلم المادى الأنانى فيه ، كما أنَّه لا يشرفه أن يتبنى مثله ·

إن أخلاق الإسلام ترفض ذلك العلم اليونانى ، ولا ترضى للمسلم الوقوف عند مجرد العدل الذى اعتبره أرسطو « من جهة العلو الفضيلة التامة »[1] و « الفضيلة كل الفضيلة »[2] .

وأخلاق الإسلام تنبذ التدنى إلى حد جعل الأنانية قاعدة أخلاقية ، ولا تقوم لها أركان إلا على أساس الإيثار والغيرية التى عدتها الفلسفة الأخلاقية الغربية قاعدة مشئومة ·

وأخلاق الإسلام ليست مجرد نظريات عقلية باردة مبتوتة الصلة بوجدان المسلم وروحه ، كعلم اليونان الأخلاقى ، ولكنها فى القلب من نظام عضوى شديد التماسك قوامه عقيدة دينية وتشريع وقيم أخلاقية ·

---

(١) الأخلاق ؛ ك ٥ ب ١ ف ١٥ ·

(٢) نفسه ؛ ف ١٩ ·

وهكذا ضمن الإسلام لقيمه الأخلاقية الحياة العينية ونفخ فيها الروح والحركة فعاشت ونمت وازدهرت فى مواجهة الميول الإنسانية الدنيا .

وأما نظريات سقراط وأفلاطون وأرسطو فبقيت حبراً على ورق ، لم تر الحياة ولم ترها الحياة ، وانفردت الأنانية واللذة الحسية بالسيطرة على الثقافة الأوربية ، نعم ، قد كان لأفلاطون أتباع وعشاق كثيرون لم يكفوا يوماً عن ترديد محاوراته ودراستها وشرحها ، لكنهم لم يجدوا فى أنفسهم العقيدة التى تلزمهم بالعمل ، أما صحب محمد ﷺ فقد تعلموا أن يتجهوا صوب العمل والممارسة دون تردد ، بمجرد أن مست قلوبهم شرارة الإيمان الأولى ، وبذلك سعدوا وأسعَدوا مَن حولهم ، وأنجزوا مثلهم العليا وغاية حياتهم القصوى ، ولقوا ربهم راضين ومرضيا عنهم .

هذه صورة تقريبية مجملة لنظام الإسلام الأخلاقى مقارناً بنظم الأخلاق فى الفلسفة اليونانية القديمة والأوربية الحديثة والمعاصرة .

ولا يمكن لعالم موضوعى منصف أن يسمى هذا النظام نبذاً ، وأن ينفى عنه صفة العلم بأسلوب ينم عن الزراية،أو حسب تعبير«جب haut en bas » أى أسلوب التعالى .

ولو أنه قرر أن فى الإسلام نظاماً أخلاقياً ، وعلماً ، ولكنه مخالف لطبيعة وغايات العلم الأخلاقى اليونانى لكان منصفاً بحق .

ونحن ربما نلتمس عذراً للمستشرق الفرنسى الكبير ، لكنه سيكون - على الرغم منا - أقبح من الذنب .

يقول رائد الدراسات الأخلاقية الإسلامية ، الدكتور محمد عبد الله دراز إن المستشرقين ، بما فيهم « كارا ده فو » بطبيعة الحال ، لم يعنوا بدراسة الأخلاق فى القرآن ، ولم يعرفوا مبادئها العامة ونظامها المتماسك .

قال دراز هذا الكلام فى رسالته لنيل درجة الدكتوراه من السوربون ، إحدى معاقل الفكر الفرنسى الحديث .

قال الدكتور دراز بالنص : « إن نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم

الأخلاق التى كتبها علماء غربيون كافية لنلحظ فيها فراغاً هائلاً وعميقاً نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآنى »[1] .

وأنا أضرب أمثلة لذلك الصمت المطلق بكتاب - Studies in Muslim Ethics لمؤلفه Donaldson ، وكتاب « المجمل فى تاريخ علم الأخلاق » لمؤلفه « سيد جويك » وكتاب Ethics لمؤلفه نيكولاى هارتمن « وهو أوسع وأشمل كتاب لمؤلف معاصر فى علم الأخلاق ، يقع فى ثلاثة مجلدات » .

فهل مثل هذا الصمت المطلق يتيح أو يجيز « لكارا ده ڤو » أن يطلق تلك الأحكام على أخلاق القرآن ؟

ونعود إلى شهادة الدكتور دراز لنكشف أبعاد هذه الحقيقة ، أو قل هذه المأساة .

قال رحمه الله تعالى : « . . . فليس هناك عالم أوربى واحد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الأخلاقية العامة ، وفضلاً عن ذلك فلم يكن لدى أى من بينهم اهتمام بأن يصوغ قواعـده العملية ويقدمها فى صورة دستور كامل ، وإنما انحصرت كل جهودهم فى أن جمعوا عددًا ، قليلاً أو كثيرًا ، من الآيات القرآنية المتعلقة بالعبادة ، أو بالسلوك ، وترجموها ترجمة حرفية»[2] .

والحق أن هذه الجهود تسيىء إلى أخلاق الإسلام إساءة بالغة لأنها من السطحية بحيث تشوه الحقائق بل ربمـا تقلبها رأساً على عقب ؛ ومعلـوم أن « الترجمة الحرفية » هى الترجمة الخاطئة فى عرف المترجمين ، ولعل هذا هو أحد أسباب بُعد « كارا ده ڤو » عن الصواب فيما كتب عن أخلاق الإسلام .

هذا الكلام الواضح الحاسـم قاله الدكتور دراز فى رسالته إلى السوربون ، كما ذكرنا ، وناقشه فيه نفر من أعلام أساتذتها ، ولهذا عنيت بنقله ، ولولا خشية الإطالة لنقلت له كلاماً آخر أبعد حسماً ووضوحاً فى هذه المسألة [3] .

وأنا أؤكد صحة ما ذهب إليه الدكتور دراز ، ذلك أنه قدر لى أن أبحث

---

(١) دستور الأخلاق فى القرآن ؛ ص ٢ .   (٢) نفسه ؛ ص ٣ .

(٣) نفسه ؛ ص ٤ ، ٨ .

عن جهود المستشرقين فى مجال الأخلاق القرآنية ، وأن أخرج من بحثى بخفى حنين ، ونحن لا نلومهم لعزوفهم عن دراسة كتابنا العزيز ، وإنما لتصديهم للحكم عليه على الرغم من ذلك العزوف .

إن أحداً من المستشرقين لم يتعمق فى دراسة أخلاق القرآن كما ينبغى لعالم موضوعى يريد الكتابة فيها ، وانصرفت اهتماماتهم إلى تراث ابن سينا وأحمد بن مسكويه وأتباعهما ؛ ومذاهب هؤلاء هى نفسها مذاهب الأخلاق اليونانية ، مع محاولات مخفقة للتوفيق بينها وبين الشريعة الإسلامية (١) .

صفوة القول - إذاً ، إن « كارا ده فو » كتب ما كتب عن أخلاق الإسلام وهو لا يعرف عنها إلاّ القليل .

ومما يؤكد هذه الحقيقة الأليمة أن اهتمامات الرجل العلمية كانت تدور بين : الرياضيات والفلسفة والتاريخ(٢) ، وهذه الاهتمامات بعيدة عن علوم القرآن عامة ، وأشد بعداً عن أخلاق القرآن .

ولربما ظن ظان أن الاشتغال بالفلسفة الإسلامية يستلزم تعمقاً فى علوم القرآن ، والحق أن هذا الظن لا مسوغ له ، لأن صلة علوم القرآن بالفلسفة واهية ؛ فدراسة الفلسفة الإسلامية تتركز على تلك المحاولات التى قام بها الفلاسفة المسلمون للتوفيق بين الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية ، بالتعسف فى تأويل عدد من آيات القرآن لكى تبدو متوافقة مع نظريات سقراط وأفلاطون وأرسطو .

فلنا أن نؤكد دون وجل أن « كارا ده فو » لم يتعمق فى أخلاق القرآن بما يسمح له بإصدار أحكام صحيحة عليها وعلى مصادرها .

ومن هنا جاءت أحكامه زائفة ومتعسفة فى آن .

وها هنا لابد أن يطرح هذا السؤال نفسه علينا عنوة : كيف نفسر هذا المسلك المنافى لمناهج البحث العلمى التى يتبناها المستشرقون وعلماء الغرب بعامة ؟

---

(١) دى بور ؛ تاريخ الفلسفة فى الإسلام : ص ١٧٣ + (١٦٩ - ١٧٠) .
(٢) نجيب العقيقى ، المستشرقون ؛ ١ / ٢٦٣ .

لا أعتقد أن الأمر مجرد « هوى أو خطأ » لإنسان من البشر يخطىء حيناً ويصيب أحياناً كما قال مترجمو دائرة المعارف الإسلامية فى تقديمهم لها [1] .

إن الرجل شرع فى الكتابة بعد إحاطة يسيرة بتلك الآيات المترجمة خطأ إلى الفرنسية ، ولعله قرأ شيئاً آخر هنا أو هناك ، وسيطرت على ذهنه فكرة مسبقة بأن الإسلام دين منحط ، ومن ثم يستحيل أن ينطوى على نظام أخلاقى مذهبى متسق ؛ وكيف يدرك شيئاً خلاف ذلك وهو يؤمن - كغيره من زمرته - بأن القرآن إنما هو من وضع رجل بدوى ؟

إنما تلك النظرة المتعالية التى أبرزها « جب » هى التى جردت معظم ما كتب الأوربيون عن الإسلام من كل قيمة علمية .

وينبغى أن نضيف للإجابة عن السؤال الذى طرح نفسه تفسيراً آخر يؤكد ما ذهبنا إليه وهو ما قال محمد أسد فى تفسيره لتخلى الأوربيين عن المنهج العلمى الموضوعى حين يكتبون عن الإسلام ؛ إن مرجع ذلك عنده إلى « التعصب المتأصل ضد الإسلام ، والذى كثيراً ما يوجد عميق الجذور فى الأدب الغربى والفكر السياسى المعاصر »[2] .

* * *

● **القضية الثانيــة :**

بعد هذا ننتقل إلى القضية الثانية والثانوية ، والتى نعتقد أن أهميتها - كما أشرنا سلفاً - لا تكمن فى رفع قيمة ابن المقفع العلمية إلى درجة تفوق درجته المتواضعة فى مجال الأخلاق الإسلامية ، ولكن فى توجيه الدارسين وجهة خاطئة .

وفى فحصنا لهذه القضية سوف نحاول ، وبالله التوفيق ، بيان المكانة العلمية الحقيقية لابن المقفع وابن مسكويه والغزالى ، وكشف ضلالات عديدة لا تزال تتردد على أقلام الباحثين بسبب جفوتهم الظاهرة لأخلاق القرآن والسنة وولعهم العنيف بأحمد بن مسكويه وأساتذته الكبار سقراط وأفلاطون وأرسطو .

---

(١) المقدمة : ص٤ .

(٢) الطريق إلى الإسلام ؛ ص ٢٠ .

وفضلاً عن هذا فإن الحديث عن عبد الله بن المقفع و « إخوان الصفاء وخلان الوفاء » بوصفهم رواد الأخلاق الإسلامية لا يخلو من الطرافة والظرف .

فمن يكون ابن المقفع ؟

يقول خير الدين الزركلى :

« عبد الله بن المقفع «١٠٦-١٤٢ هـ =٧٢٩-٧٥٩م» من أئمة الكتاب، وأول من عنى فى الإسلام بترجمة كتب المنطق ، أصله من الفرس ، ولد فى العراق مجوسياً « مزدكياً » وأسلم على يد عيسى بن على « عم السفاح » ، وولى كتابة الديوان للمنصور العباسى ، وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة ... ، وترجم عن الفارسية كتاب« كليلة ودمنة » وهو أشهر كتبه[١] .

فهو كاتب مرموق ، ومترجم لكتب المنطق الأرسطى وللأدب الفارسى ، لكن ليس ثمة ما ينبىء عن صلة بالدراسات الإسلامية .

ونبحث عن مصادر فكر ابن المقفع فنجد باحثاً يقول : « ومن مطالعتنا لآثار هذا الكتاب نرى أنه استمد معارفه وآراءه فى الإصلاح والسياسة والإدارة من معارف الأمم فى عصره ، كالفرس والهنود واليونان »[٢] .

فأين القرآن والسنة بين مصادره ؟ وأين الأخلاق بين اهتماماته ؟

ويقول الباحث نفسه عن كتابى ابن المقفع : الأدب الكبير والأدب الصغير ، اللذين يظن أنهما فى علم الأخلاق ، إنهما « تغلب عليهما الثقافة الفارسية والأثر اليونانى ، واللفتة الإسلامية »[٣] .

فهل هذه « اللفتات » هى التى أهلّت الرجل فى نظر كارا ده فو للريادة فى مجال « الأخلاق الإسلامية » ؟

لكن ابن المقفع متهم ، متهم فقط ، بالزندقة ، وبالموت على المانوية .

قال المهدى « ابن الخليفة المنصور العباسى » : « ما وُجد كتاب زندقة إلاّ وأصله من ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد »[٤] .

(١) الأعلام ؛ ٤ / ٢٨٣ .

(٢) عمر أبو النصر ؛ آثار ابن المقفع ؛ ص ١٢ . (٣) نفسه ؛ ص ٣٠ .

(٤) البداية والنهاية ؛ ١٠ / ٩٦ .

هذه شهادة رجل خالط ابن المقفع ولاحظه عن كثب ، لأن هذا الأخير تولى كتابة الديوان لوالد المهدى ، كما أخبر الزركلى فيما نقلنا عنه .

لكن ربما يقال ، بحق ، إن المهدى وأباه كانا حانقين على ابن المقفع بسبب النقدات الساخرات التى دأب على توجيهها إليهما ، وعلى هذا لا يصح بناء نظرة موضوعية استناداً إلى شهادتهما .

لكن الملاحظ أن الدارسين المحدثين المتعاطفين مع ابن المقفع والمعجبين بأدبه لم يستطيعوا أن ينفوا عنه الزندقة .

قال عمر أبو النصر : « أما إن ابن المقفع كان ملحداً زنديقاً بعد إسلامه فهذه تهمة لست أملك البرهان القاطع عليها .. فأنا من أمرها بين بين .. فقد كان الناس فى هذا العهد يتهمون بالزندقة كل من قال بيتًا من الشعر فيه تعريض بالدين أو استخفاف بالحرمات »[1] ، كأن التعريض بالدين والاستخفاف بالحرمات ليس زندقة فى رأى الأستاذ الكاتب !

وذهب المستشرق « غبرائيلى » إلى القول إن ابن المقفع مات على المانوية[2] ، ولست أدرى إن كان كارا ده فو قد اطلع على مثل هذه الآراء أم لا ؛ لكنه على ما يبدو لا يرى تعارضاً بين الزندقة والريادة فى الأخلاق الإسلامية .

ويصف الأستاذ عمر أبو النصر حالة ابن المقفع فيقول: « كان ابن المقفع من الناقمين على الحالة فى عصره نقمة شديدة بالغة ... وكان محباً للانتقاد والهدم إلى أبعد الحدود ، فلم يكن يعرض أمامه شيء إلاّ تناوله بشيء من الهزء والسخرية والنقد الشديد »[3] .

وظاهر من هذا الكلام أن نقمة ابن المقفع وسخريته قد استطالت وامتدت إلى حقائق الدين وعقائده وأخلاقياته .

ولقد ألف القاسم بن ابراهيم الزيدى « من أئمة الزيدية ، توفى سنة ٢٤٦ هـ » كتاباً للرد على زندقة ابن المقفع ؛ وكلام القاسم فيه يبين بجلاء أنه كان كافراً كفراً صراحاً[4] .

---

(١) آثار ابن المقفع ؛ ص ١٠ .

(٢) انظر : د / عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ؛ ط ٣ ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) السابق ؛ ص ٢٥ . (٤) د . عبد اللطيف حمزة ، السابق ، ص ٨٦ .

وكان أصحاب ابن المقفع كلهم زنادقة: مطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد، وحماد عجرد الذى ألف لأصحابه هؤلاء مقطوعة مانوية كانوا ينشدونها «باعتبارها صلاة»(١).

وأخيرا، أتساءل، هل هذا الانخلاع من الدين والهزء به هما سبب الغلو فى تقدير ابن المقفع؟

إن أحدا لا ينكر أن التقدير الأدبى والفلسفى والفنى يتأثر بعقيدة الناقد ومذهبه، وما أحسب أن كارا ده ڤونجا من مثل هذا التأثير، ولا نجا غيره من الكتاب العرب الناقمين على الإسلام.

وبعد، فربما مات ابن المقفع على الإسلام، ولم يكن زنديقا؛ وربما مات على المانوية كما قال «غبرائيلى» الله وحده يعلم حقيقة الدين الذى مات عليه.

لكننا نؤكد أن الرجل ليس أول الأخلاقيين العرب ولا أهمهم وإنما هو رجل حديث عهد بالإسلام، لم ينقطع لعلومه ولم يتعمق فى دراستها، وانصرفت همته إلى ترجمة المنطق الأرسطى والأدب الفارسى فى محاولة لتغليب ثقافة قومه على الثقافة الإسلامية.

وتاريخ الرجل يشير إلى أنه أسلم حقا، لكنه لم يفلح فى التخلص من الإعجاب بـ«يزدمان» و«أهريمان»، إلهى المجوس، و«الأوستا» كتاب المجوسية، أما علوم القرآن فلم تكن موضع دراسة تسمح له بأن يقعِّد قواعدها أو يؤصل أصولها.

فليس بوسع أحد - والأمر هكذا - أن يضع ابن المقفع على رأس الأخلاقيين العرب أو الأخلاقيين الإسلاميين، فالأولون فلاسفة عنوا أساسا بالتوفيق بين الأخلاق الفلسفية اليونانية والشريعة الإسلامية، وأبرزهم باعتراف الجميع تقريبا هو أحمد بن مسكويه وليس ابن المقفع ولا إخوان الصفاء وخلان الوفاء، والآخرون علماء انصرفت هممهم لدراسة علوم القرآن والسنة، والأخلاق الإسلامية ضمنا، كالمفسرين والمحدّثين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين.

---

(١) نفسه؛ ص ٨١.

ولا مكان لعبد الله بن المقفع بين هؤلاء ·

وبوسعنا أن نضع الإمام البخارى ، بكتابه « الأدب المفرد » ، والحارث ابن أسد المحاسبى ، بكتابه « الرعاية لحقوق الله » ، والماوردى بكتابه « أدب الدنيا والدين » على رأس فئة محدودة جداً من حيث العدد كان لها اهتمامها بالأخلاق الإسلامية كفرع مستقل عن العلوم الإسلامية الأخرى ·

وهكذا يتبين لنا أن على أى دارس للأخلاق الإسلامية أن يتجه إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة وكافة العلوم المشتغلة بهما ، وأن يتخذ منها مصادر أساسية لدراسته ، فضلاً عن الدراسات الحديثة ، القليلة ، وعلى رأسها « دستور الأخلاق فى القرآن » للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ·

وأما دارسو الأخلاق اليونانية الفلسفية التى انشغل بها الفلاسفة العرب فعليهم الرجوع إلى « تهذيب الأخلاق » لمسكويه ، و « الأخلاق » لابن سينا ، و« ميزان العمل » للغزالى ، وعشرات الرسائل والدراسات الحديثة التى اتخذت من فلسفة هؤلاء موضوعاً لها ·

ولو أن كارا ده فو تعمق فى الأخلاق الإسلامية بنظرة موضوعية مجردة من أى حكم متقدم ، ودون تعال ثقافى ، لميز هذه الازدواجية فى تراثنا العربى ، ونجا بذلك من التخليط والزيف ·

● هذا هو الحق الذى أسفر عنه التمحيص الموضوعى لمكانة ابن المقفع ؛ أما إخوان الصفاء وخلان الوفاء فأمرهم أشد غرابة من أمر ابن المقفع ·

لقد قال عنهم كارا ده فو إنهم أهم الأخلاقيين العرب بعد ابن المقفع ·

وسوف نناقش الاحتمالين الواردين ها هنا :

الأول : أن يكون قصد المستشرق الكبير أنهم أهم الفلاسفة العرب ·

والثانى : أن يكون قصده أنهم أهم المشتغلين بأخلاق الإسلام ·

إن جهود إخوان الصفاء فى التوفيق بين أخلاق الفلسفة وأخلاق الإسلام معدومة ، وإنك إن تفحصت رسائلهم وجدت ثرثرة فى كل شأن إلا الأخلاق ·

ففى الرسالة التاسعة التى وضعوها فى الأخلاق فصول عن : خلْق آدم ، وعلامات الأولياء ، وعدد من الحكايات ، وبقية الرسالة « حوالى ٢٠ صفحة » لا تنطوى على أى علم أخلاقى إسلامى أو يونانى(١) .

فإخوان الصفاء وخلان الوفاء نقلوا كغيرهم من الفلاسفة العرب عن فلاسفة اليونان ، لكنهم تميزوا بقلة المحصول الذى جنوه ، وبإخفاقهم الذريع فى التوفيق بين الفلسفة والشريعة(٢) ، وبحملتهم على المجتمع والأديان من غير أدنى احتياط(٣) ، وبنزعتهم التلفيقية الشاذة التى اعتبرت الإنسان الكامل الخلق : « فارسى النسب ، عربى الدين ، عراقى الآداب ، عبرانى المخبر ، مسيحى المنهج . . . »(٤) .

ولا تسأل كيف ! فقد أرادت هذه الجماعة : « أن تخلط الدين بالفلسفة فما استقام لها الدين ، ولا استقامت لها الفلسفة »(٥) .

وقد وصف رسائلهم من القدماء أبو حيان التوحيدى فقال : « قد رأيت جملة منها ، وهى مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وهى خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات » .

وقال فيها أبو سليمان المنطقى السجستانى محمد بن بهرام : « تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أُجروا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا » .

وإليك مثالاً واحدًا للخرافات التى حشوا بها رسائلهم .

قالوا فى اختلاف الأخلاق بأربعة أسباب ، أهمها : موجبات أحكام النجوم فى أصول مواليدهم ومساقط نطفهم ، وهى الأصل وباقيها فروع عليها » !(٦) .

ومن هذا كله يتجلى لنا أن القدماء والمحدثين من النقاد مجمعون على أن إخوان الصفاء لم يحصلوا من الفلسفة اليونانية إلاّ النزر اليسير ، وأنهم أخفقوا

(١) الرسائل ، ١ / ١٢ . (٢) إخبار الحكماء ، ص ٦٠ .
(٣) دى بور ، السابق ، ص ١١٥ . (٤) نفسه ١٢٣ - ١٢٤ .
(٥) عمر الدسوقى ، إخوان الصفاء ، ص ٦ . (٦) الرسائل ، ص ٢٩٩ .

فى التوفيق بين النزر الذى حصلوه وبين الشريعة الإسلامية ، ثم إنهم مزجوا هذا وذاك بالخرافات والأباطيل التى يأباها العقل والدين .

فهل هذا يسوغ لأحد أن يضعهم على رأس الأخلاقيين العرب أو يصفهم بأنهم أهمهم ؟

وهذه على أية حال مسألة ثانوية بالنسبة لنا نحن الإسلاميين ، إنما الأمر المهم حقاً هو صلة إخوان الصفاء بالإسلام والأخلاق الإسلامية .

وأسلم الطرق إلى إدراك حقيقة هذه الصلة هى أن نعرف : مَن إخوان الصفاء ؟

إخوان الصفا ، جماعة تألفت فى القرن الرابع الهجرى ، وكان موطنها البصرة ولها فرع فى بغداد ، واتخذت شكل حزب سرى منظم ، ويقال إنهم فرقة من القرامطة وأنهم إسماعيليون أصلاً [١] .

وكان هدفهم حسب زعمهم : « العمل الصالح فى تثقيف العقول والنفوس بمذهب يجمع الفلسفة والدين ، موفقاً بينهما فى طريق المحبة وصفاء الأخوة ، فيزول ما علق بالشريعة من الجهالات والضلالات ويحصل الكمال للإنسان »[٢] .

وسنرى بعد قليل إيضاحاً لحقيقة هذا الهدف الذى يبدو معقولاً حين نعرف شيئاً عن ديانتهم الحقيقية التى حاولوا إخفاءها عن الأنظار بضروب متباينة من التمويه !

لقد تظاهر إخوان الصفاء بأنهم مسلمون ، وأعلنوا حماسهم لآل البيت كى تجوز نسبتهم إلى الشيعة .

والحقيقة أنهم ما كانوا شيعة ولا كانوا مسلمين .

« فهم إذا ذكروا القرآن عنوا به رسائلهم ! وإذا قالوا : « أهل بيتنا » فإنما يعنون إخوانهم و « الحسين » رمز لكل إنسان يستشهد فى سبيل مبدئه »[٣] .

---

(١) بطرس البستانى ، رسائل إخوان الصفاء ، المقدمة . (٢) نفسه ، ص ٨ .
(٣) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى ، ص ٣٧٩ .

ويؤكد هذا التضليل الدكتور على سامى النشار فيقول إنهم « اعتبروا رسائلهم قرآنا » ![1] .

ويقرر باحث ثالث متعاطف معهم أنه وجد فى نصوصهم : « فقرات كثيرة ، ولكنها مموهة ، تشير إلى أن فى قرارة نفوسهم ميلاً إلى الوثنية » ، «من ذلك أنهم لا يأنفون من التمثيل بآلهة الزرادشتيين فى معرض ذكرهم الأنبياء والرسل »[2] ، وأن هدفهم كان إحياء : « المجوسية الفارسية المعدلة بالوثنية الإغريقية »[3] .

أفلا يكفى هذا القدر من المنقول لبيان مقصدهم الخبيث من دعواهم إزالة ما علق بالشريعة من الجهالات والضلالات ؟

إن الجهالات والضلالات عند هذه الفئة الوثنية هى مبادىء التوحيد والتنزيه التى قام عليها الإسلام !

ولقد أنكرت هذه الفئة الوثنية الجنة والنار - أيضاً - وقالوا بخلود العالم وأنكروا البعث بالأجساد[4] .

وإن قراءة الرسالة الجامعة التى وضعها أئمتهم لتبين مروقهم من الدين وكفرهم بالقرآن ، لا حرصهم على إزالة ما علق بالدين من الجهالات ، إن هذه القراءة تؤكد ما ذهب إليه الدكتور النشار من أنهم اعتبروا رسائلهم قرآنا .

قالوا عن رسالتهم الجامعة تلك : « هى نهاية المراد ، ونزهة المرتاد ، والفوز فى المعاش والمعاد ، لأن بهن - أى رسائلهم - التوصل إليها - أى إلى الرسالة الجامعة - وبفهمهنّ الوقوف عليها ، فمن وفقه الله لذلك ويسره ، فقد هداه من الحيرة ، وأحياه بعد الموت ، وأمنه من الخوف ، وأزلفه إليه ، وأسبغ جلائل نعمه عليه ، فيبقى بقاء الأبد ، ويدوم دوام السرمد ، فى السعادة التامة ، والبركات العامة ، والنعيم المقيم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ص ٣٨٩ .

(٢) د . جبور عبد النور ، السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ . (٣) نفسه ، ص ٤٦ .

(٤) عمر الدسوقى ، المرجع السابق ص ١٨٨ .

ومن الجلى أن المسلم لا يصف كتاباً بهذه الأوصاف غير كتاب الله .

فهل يمكن - بعد هذا - أن نخطىء فى فهم صلتهم بالإسلام وأخلاقه ؟ هل يجوز فى عقل أحد أن يكون أولئك الوثنيون هم أهم الأخلاقيين الإسلاميين ؟

لا أظن أنه يجوز ، وإن كان قد جاز حقاً لدى كارا ده فو المستشرق الفرنسى الكبير .

والحق أن الفرق والطوائف الضالة المنحرفة فى تاريخنا الإسلامى القديم والحديث قد لقيت ، وتلقى على الدوام ، كل تعاطف وتقدير من قبل المستشرقين ، والكتاب العرب المسيحيين ، وبعض الأساتذة المسلمين من تلامذة المستشرقين .

وإخوان الصفاء وخلان الوفاء طائفة ضالة منحرفة ، ومن هنا كان لابد أن يكونوا أهم الأخلاقيين العرب ، بعد ابن المقفع ، ولابد أن يعنى المستشرق « كازانوفا » بفكرهم ويكتب عنهم أبحاثاً عديدة فى المجلة الآسيوية ، وكذلك « دى بور » و « مكدونالد » فضلاً عن كارا ده فو .

ومن هنا أيضاً كان لابد أن تُقَدَّم نشاطات الإخوان فى صورة انتفاضة اجتماعية وأن تنسب إليها أهـداف اشتراكية ! و « إعـداد الأذهان لثورة فكرية »[1] ، وصاحب هذا التصوير هو نفسه الذى قرر أنهم انتهجوا سياسة : « الاستهانة بالعقيدة الدينية الرسمية - أى الإسلام - والاتفاق على أنها الوسيلة الفعالة التى استخدمها السلطان الفاسد فى ترسيخ قدمه »[2] .

ويذكر القارىء أن هذا الهراء هو ما يردده الشيوعيون اليوم بقولهم إن الدين أفيون الشعوب ، والحق الذى لا يمكن دحضه بحال هو أن الدين الإسلامى كان على الدوام هو المحرك للشعوب الإسلامية ضد الفساد السياسى والظلم الاجتماعى ، ولا يزال إلى اليوم .

ويقول الكاتب عينه إن إخوان الصفاء جماعة : « تحتل فى تاريخ الفكر العربى مقاماً رفيعاً ، وتمتاز بأن أعضاءها سعوا إلى الإصلاح الاجتماعى والدينى »[3] .

---

(١) د . جبور عبد النور ، ص ٧ .
(٢) الموضع نفسه .
(٣) الموضع نفسه .

والإصلاح الذى يشيد به الكاتب ،- كما رأينا - هو الجمع بين : التوحيد والتثليث والوثنية الفارسية ، كما قرر هو نفسه حين قال إن هدفهم هـو : إحياء المجوسية الفارسية المعدلة بالوثنية الإغريقية ![1] .

ولا تسألنى كيف يكون ذلك ! فلا أنا ولا غيرى ولا أحد من الإخوان الخلان يعرف كيف ! فلقد كان هدفهم بهذه الضلالات هدم الإسلام والارتداد إلى الوثنية وكل حديثهم عن الجمع والتوفيق مجرد تمويه زائف .

وولع هذا الناقد الحديث وغيره بإخوان الصفاء يرجع أساساً إلى محاولات « الخلان » هدم التوحيد لصالح التثليث المسيحى الذى تبنوه وتحمسوا له ، أجل ، آمن « الخلان » بأن يسوع هو ابن الرب ! وهذا الإيمان هو - على وجه التدقيق - العقيدة المسيحية الأساسية المناقضة للعقيدة الإسلامية الأسـاسـية : التوحيد وتنزيه الله عن الشريك والولد : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[2] .

أظن أن هذا هو ما يفسر لنا مواقف النقاد من العرب والمستشرقين على السواء من إخوان الصفاء ، وأمثالهم من الطوائف الضالة والفرق المرتدة فى القديم والحديث على السواء .

ولا أحب أن أدع هذه المسألة تمر دون أن أحاول الربط بين إخوان الصفاء فى القرن الرابع الهجرى والقاديانية فى القرن الرابع عشر ، فإن تعطشنا إلى فهم زماننا أشد حرقة وألماً من تعطشنا إلى فهم ما انقضى من الأيام .

فى العصر الحديث احتلت الدول الاستعمارية معظم رقاع عالمنا الإسـلامى ، وفكرت فى وسيلة لإبقاء سيطرتها عليه أبد الدهر ، فلم تجد غير طريق واحد هو إنشاء فرق مرتدة هى القاديانية والبهائية والبابية ، كى تشق الكيان الإسلامى من قلبه ذاته ، ثم تضرب أشتاته الممزقة بعضها ببعض ، وكان لإنجلترا واليهود الدور البارز والرائد فى هذا المخطط الإجرامى ضد الإسلام والمسلمين .

لقـد توالت التحذيرات مـن المستشرقين والدبلوماسيين والصحفيين ،

---

(١) نفسه ، ص ١٧ . (٢) سورة الإخلاص .

ولا تزال إلى اليوم ، من صحوة إسلامية تطيح بهم خارج البلاد وتحرمهم من النهب والسلب والسيطرة التى استمرؤوها وأسسوا على ثمارها جانباً كبيراً من نهضتهم وقوتهم من ذلك مثلاً ما قال « باول شمتز » : « ... وسيعيد التاريخ نفسه ، مبتدئاً من الشرق ، عوداً على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام ، وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها، وستنقلب موازين القوى ، لأنها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية[١] .

وإحباط فعالية الإسلام لا يتحقق إلا عن طريق تشقيق المسلمين من الداخل بإنشاء الفرق المرتدة التى تصمم - على الرغم من ذلك - على أنها إسلامية ، هذا ما كان فى الماضى ، وما صنعته إنجلترا واسرائيل فى الحاضر ، وهكذا اخترعت القاديانية وأذيعت وتم التمكين لها فى مواقع عديدة من العالم .

ولننظر كم تتشابه القاديانية وإخوان الصفاء .

١ - لقد أراد الإخوان وضع قرآن جديد من اختراعهم ، وكذلك زعم ميرزا غلام أحمد زعيم القاديانية : « أنه نبى مرسل ، ولكنه ليس بنبى مستقل ، بل نبى متبع - كهارون لموسى - وحرَّف معانى القرآن وأوَّلها تأويلاً فاسداً وروَّج أفكاراً باطلة »[٢] .

٢ - ولقد كان المجوس والنصارى وراء إخوان الصفاء ، ولا يزال غرام النصارى بهم حاراً لم يبرد إلى اليوم ، وكذلك يفعلون - اليوم - مع القديانية ، وإن ما أنفقته بريطانيا واسرائيل للتمكين للقاديانية لكثير .

٣ - وإخوان الصفاء أرادوا غسل الشريعة ، أى مسخها وإبطالها ، وكذلك فعلت القاديانية ! وأول ما صنعته فى هذا الصدد إبطال فرض الجهاد واعتبار قتال جنود بريطانيا العظمى معصية لله عز وجل ؟

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) إحسان ظهير إلهى ، القاديانية ، ط ٣ ص ٢٠ .

٤ - والإخوان فضلوا التثليث على التوحيد ، وكذلك تفعل القاديانية .

ومعذرة عن هذا الاستطراد الذى أملته الارتباطات والتماثلات المدهشة .

فأعود لأقول : هذه هى جماعة إخوان الصفاء الذين اعتبرهم كارا ده ڤو أهم الأخلاقيين العرب بعد ابن المقفع ؛ وهذا هو العلم الموضوعى المنهجى الذى عده البعض مثلاً أعلى يجب أن يحتذى فى جميع فروع الدراسات الإسلامية ، وعلينا أن نتعلم من هذا الكثير .

يجب أن تكون لدينا مصادرنا الدقيقة فى الأخلاق الإسلامية التى رسمها القرآن الكريم وفصلتها السنة المطهرة .

وينبغى أن نفكر منذ الآن فى إصدار دائرة المعارف الإسلامية الدقيقة الموثقة التى تعصم أبناءنا وأنفسنا من المتاهات والأخطاء والشكوك .

● بعد هذا يبقى من القضية موضع النظر أن نفحص ما قال كارا ده ڤو عن أحمد بن مسكويه (٣٢٠ - ٤٢١هـ)،وعن الغزالى(٤٥٠- ٥٠٥ هـ) .

أحمد بن مسكويه: هو أهم من كتب فى الأخلاق الفلسفية وأشهرهم ، كما أشرنا إلى ذلك عرضاً فيما سلف من هذا البحث .

وكتابه « **تهذيب الأخلاق** » هو سبب شهرته كفيلسوف أخلاقى ، وقد لقى هذا الكتاب حظوة كبيرة لدى الدارسين فى العصر الحديث ، ربما لأنه فريد فى بابه أكثر من أى سبب آخر ، فطبع مراراً ، وحقّق ، ودرس حتى أشبع تحليلاً وتمحيصاً ، على الرغم من أن مسكويه لم يأت فيما كتب عن الفضيلة والسعادة بجديد « لم يأخذه عن فلاسفة الإغريق ، وبخاصة - كما يصرح دائما - عن أفلاطون وأرسطو »[١] ، وعلى الرغم من أنه « ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة لا لف فيها ولا مداورة ؛ فهو من مجددى فلسفة اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الإسلامية»[٢].

وعن توفيقه بين الفلسفة والشريعة يقول دى بور إنه : « لم يفلح ، من حيث التفاصيل - فى التوفيق بين مختلف النظريات اليونانية الأخلاقية التى

---

(١) د . محمد يوسف موسى ؛ فلسفة الأخلاق فى الإسلام ؛ ص ١١٦ .

(٢) د . زكى مبارك ؛ الأخلاق عند الغزالى ؛ ص ٥٨ .

أدخلها فى مذهبه ، ولا فى التوفيق بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية »[1] ، والظاهر أنه كان بعيداً عن الدين قريباً من الفلسفة ، كما يقول دارسه الدكتور عبد العزيز عزت[2] .

والحق أن هذا التقديم صحيح .

وإن المطالعة الأولى لكتاب مسكويه « تهذيب الأخلاق » لتبين بوضوح أنه لكذلك . فالرجل ، كما أسلفنا ، كان أهم فيلسوف عربى اشتغل بالأخلاق اليونانية ، وهو أهم كثيراً من ابن المقفع وإخوان الصفاء ، وإن كان ابن المقفع أسبق منه فى التاريخ .

وأحمد بن مسكويه لم يدَّع لنفسه مكانة فوق هذه أعنى مكانة الدارس المتلقى عن أفلاطون وأرسطو ، وهو الذى قال عن أفلاطون إنه : « ذلك الحكيم المحسن إلينا ، المنعم علينا »[3] ، وفلسفة مسكويه الأخلاقية تؤكد مكانته هذه .

لقد أحسن أفلاطون إلى مسكويه ، لكنه ، حين ترجمت فلسفته إلى العربية كانت ضارة بالفكر الإسلامى عامة والأخلاق خاصة ، وهذه الحقيقة تصدق على أرسطو أيضاً ، لقد اختلطت الفلسفة الخلقية بالأخلاق الدينية بحجة التوفيق والتلفيق ، وكانت الفلسفة اليونانية قد قُدمت ناضجة وجاهزة ، فأغرت الفكر العربى بالانصراف إليها دون الأخلاق الإسلامية التى ظلت حتى عصرنا هذا ممتزجة بالعلوم الإسلامية الأخرى ، ولم يكتب فيها كعلم مستقل إلاّ عدد قليل من المؤلفات .

والأنكى من هذا كله أن تحسب مناقص الأخلاق الفلسفية على أخلاق الإسلام . أليس الذين كتبوا فيها بمسلمين ؟!

تلك حقيقة مكانة أحمد بن مسكويه ، وهذه هى وجهته الفلسفية ، أوجزت الكلام فيهما بما يفى بأهداف هذا المقال النقدى ؛ لكن إذا قدر لأحد أن يتناول أخلاق مسكويه بالدراسة المستفيضة من جديد - بعد الدراسات

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ؛ ١٧٣ (١٦٩ - ١٧٠) .

(٢) ابن مسكويه - فلسفته الأخلاقية ومصادرها ؛ ص ٣٤٩ .

(٣) كتاب السعادة ؛ ص ٥٩ .

العديدة التى تناولته - فعليه أن ينطلق من قاعدة منهجية أساسية قوامها التمييز بين تيارين متباينين فى تراثنا الأخلاقى: تيار الأخلاق الإسلامية - أخلاق القرآن والسنة - وتيار الأخلاق الفلسفية اليونانية التى حاول الفلاسفة العرب تلقيحها ببعض الأمصال الإسلامية.

وأما الغزالى فيجب أن نفرق فى مؤلفاته بين مستويين:

(أ) مؤلفات طور الشباب. (ب) ومؤلفات سن النضج.

فالأخلاق التى عرضها الغزالى فى «ميزان العمل»، وهو من مؤلفات طور الشباب، تكشف عن تأثره الجذرى بالفلسفة اليونانية، بحيث تجد مبادئها تتردد على طول صفحات الكتاب، وتجد الفضائل اليونانية موضع العناية والدرس، وكذلك ما لها من نظائر فى الإسلام، أما الفضائل الإسلامية التى لا نظائر لها لدى اليونان فلا ذكر لها هناك.

ومعروف أن من الإجحاف الحكم على أصالة أو عمق أو وجهة أى كاتب أو مفكر استناداً إلى مؤلفات طور الشباب، ومع هذا يقترف بعض النقاد هذا الإجحاف؛ فطالما كان اسم الكاتب على كتاب فهو عندهم يمثل وجهته ويصلح سنداً لتقويم أصالته.

ونحن إن اعتمدنا على «ميزان العمل» حكمنا بميل الغزالى الغلاب إلى متابعة الفلاسفة اليونان، فهو قد اعتمد نظرية النفس لدى أفلاطون وتقسيماته لقواها(١)، وللفضائل تبعاً لذلك؛ ثم إنه قد ذهب فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم حد التعسف كيما يحملها قسراً على التوافق مع نظرية الوسط الأرسطية: فقوله تعالى مثلا: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(٢) يفسر عنده بمعنى: «طلب الوسط بين الأطراف»(٣).

فالغزالى فى هذه المرحلة كان ينتمى إلى خط أحمد بن مسكويه دون شك، لكنه فى «إحياء علوم الدين» خلف وراءه فلسفة اليونان، واتجه إلى القرآن والسنة فى تأملات عميقة، وعلى الرغم من هذا كان نصيب الأخلاق

---

(١) ميزان العمل؛ ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) هود: ١١٢.

(٣) نفسه؛ ص ٢٧٠.

الإسلامية فى « الإحياء » متواضعاً ؛ فإن التحليلات الواسعة التى نصادفها فيه للرذائل والفضائل توجهها دائما فكرة صوفية أو هدف صوفى متأثراً أبعد التأثر بتراث الحارث بن أسد المحاسبى (المتوفى سنة ٢٤٣ هـ) .

وهكذا يتضح بجلاء أن الغزالى لا ينبغى أن يُسلك مع ابن المقفع وإخوان الصفاء فى عقد واحد ، كما سلكه « كارا ده ڤو » ، دون تمييز بين طور الشباب وطور النضج ، أو بين الأخلاق الفلسفية وأخلاق الإسلام .

وعلى المهتمين بالأخلاق الإسلامية أن يعيدوا دراسة الأخلاق عند الغزالى من منطلقات جديدة تأخذ فى الحسبان تلك الازدواجية الأخلاقية فى تراثنا العربى عامَّة وتراث الغزالى خاصة ، مع مزيد عناية بمؤلفات طور النضج التى تمثل آخر ما وصلت إليه تأملاته .

عندئذ فقط يصبح بوسعنا أن نحدد بدقة مدى اقتراب نظراته النهائية من أخلاق الإسلام .

* * *

(٢)

اللغة والثقافة

للمستشرق اليابانى

تُوشِيهِيكُو إِيزُوتْسُو

تقـــديم

– من هو إيزوتسو؟

● أستـاذ يابانى، وُلد فى طوكـيـو سنة ١٩١٤، ودَرَسَ اللغـة العـربيـة والإسلام، ثم تخصص فى الدراسات الإسلامية، وعمل أستاذًا فى معهد الدراسات الثقافية واللغوية بجامعة « كيو keio » فى طوكيو، حيث درَّس العقيدة والفلسفة الإسلامية سنوات طويلة، كذلك عمل إيزوتسو أستاذًا زائرًا فى معهد الدراسات الإسلامية فى جامعة «ماكْجِلْ» فى كندا حيث كان يمضى ستة أشهر كل عام فى تدريس العقيدة والفلسفة الإسلامية.

● وألَّف إيزوتسو أربعة كتب بالإنجليزية فى العقيدة والأخلاق الإسلامية، والدراسة التى نترجمها هنا هى مقدمة كتابه: التصورات الأخلاقية الدينية فى القرآن[1].

● وقد شعرت أن من المفيد ترجمة هذه الدراسة إلى العربية؛ فهى تنطوى على آراء مفيدة فى علاقة الفكر واللغة، وتثير قضايا معرفية وأخلاقية وفلسفية متصلة بتلك العلاقة، وفضلاً عن هذا هى تشكل تحذيرًا شديدًا لكل من يحاول ترجمة نص ثقافى إلى غير لغته الأصلية، وبذلك تصل نفسها بقضية ترجمة معانى القرآن الكريم ومواقف الفقهاء المسلمين منها.

*   *   *

(1) Ethico - Religious Concepts in the Qu-ran; pp. 3-15; Mcgill University Press; Canada; 1966.

اللغة والثقافة

قال إيزوتسو «بوسعنا أن نبحث التصورات الأخلاقية الدينية في القرآن بطرق عديدة، متباينة، فقد ننطلق من النظام القانوني الإسلامي المفَصَّل المحكَم الذى قَنَّنَ، فى العصور المتأخرة، كلَّ ضروب السلوك البشرى فى أدق تفاصيلها. ولسوف نجد أنفسنا وقد أُعدنا إلى القرآن باعتباره المصدر الأصلى لكلٍ ما فيه من أوامر ونواه، وقد ننطَلق من المذهب العقدى الذى لا يقل إحكامًا، ولسوف نكتشف أنه ليس سوى معالجة نظرية للمشكلة الأساسية المتعلقة بما ينبغى للمؤمن الحق أن يعتقده، والموقف الذى يتحتم أن يتخذه تجاه الله (تعالي) وكيف ينبغى أن يعمل طبقًا لما تمليه عليه عقيدته، وقد ننطلق أيضًا فى عملنا من جمع تعاليم وآراء متباينة فى الأخلاق، تنتظم فى نسق واحد، وهى التى يشتمل عليها القرآن، ثم ننسقها، ونؤلف كتابًا نسميهُ (أخلاق القرآن).

إن طبيعة اهتماماتى فى هذا الكتاب مختلفة عن مثل تلك الاهتمامات وأشباهها اختلافا تامًا، ويتمثل الاختلاف فى المنهج التحليلى الذى سأطبقه على المعطيات القرآنية، والذى يجعل القرآن يفسر تصوراته بنفسه ويتحدث عن نفسه بنفسه، وبعبارة أخرى، الشئ المركزى فى بحثى ليس المادة بقدر ما هو منهج التحليل اللغوى الذى يطبق على تلك المادة، ووجهة النظر الخاصة التى يحاول من خلالها أن يحلل بِنْية الدلالة فى المصطلحات الأخلاقية القرآنية فى مجال السلوك والخُلُق.

وأحب أن أؤكد منذ البداية أننى لا أُعوِّل بحال على الشواهد المستقاة من النصوص المترجمة، الأمر الذى يبدو لأول وهلة كأنه بدهى، فالألفاظ والجمل المترجمة لا تتكافأ فى أحسن الأحوال، إلا جزئيًا فحسب، إنها قد تصلح كمرشد تقريبى جاهز لخطواتنا الأولى التى تتحسس الطريق، لكنها فى حالات كثيرة تكون قاصرة قصورا شديدا، بل ومضللة ، وهى لا تستطيع أن توفر، فى أية حالة من الحالات، أساسًا وطيداً لمناقشة البِنية الخاصة لوجهة

النظر الأخلاقية تجاه العالم لدى شعب من الشعوب ، إن هذا الرأى ، كما قلتُ توّا ، قد يبدو من الذيوع بحيث لا يحتاج إلى توكيد خاص ، إن الأهمية الواقعية لهذه القاعدة ، والخطر الماحق لعدم الالتفات إليها التفاتًا تامًا ، سوف يتجسد أمام أنظارنا ، إذا نحن تذكرنا فحسب أننا حتى حين نقرأ نصًا فى لغته الأصلية ، نميل إلى أن نقرأ فيه تصوراتنا نحن كما تعبر عنها لغتنا ، وتبعًا لذلك نحيل الكثير من مصطلحاته الأساسية ، إن لم نقل كلها ، إلى المصطلحات المشابهة التى توجد فى لغتنا ، ونحن حين نفعل ذلك لا نكون فى الحقيقة قد فعلنا شيئًا سوى فهم النص الأصلى من خلال ترجمته ، وبعبارة أخرى ، نحن نكوِّن تصورات مترجمة دون أن نكُون على وعيٍ بذلك ، وفى الأدب الأخلاقى المعاصر، نشعر بالآثار المريرة لهذا الضرب من التحويل اللاشعورى ، وعلى الخصوص فى مجال الدراسات المقارنة للمذاهب المختلفة فى الفكر الأخلاقى ، وقد أبرز الباحثون هذا الاتجاه ؛ وبيَّنوه أعظم بيان من خلال التطورات المدهشة للأنثروبولوجيا الثقافية فى العصور الحديثة .

إن تطور الأنثروبولوجيا الثقافية قد بلغ درجة عظيمةً لا تسمح بتجاهله من قبل أى إنسان يهتم اهتمامًا جادًا بمشكلات الثقافة والحقائق الإنسانية . ولهذا اضطر معظم المؤلفين المعاصرين فى علم الأخلاق ، طواعية ، إلى إعطاء شىء من الاهتمام ، على الأقل ، إلى النظم الأخلاقية المخالفة لتلك التى توجد فى مجال ثقافتهم ، ونتيجة لذلك ، تَرُوج الآن دراسات تشبه شبهًا سطحيًا علم الأخلاق المقارن ، ولم يعد من النادر أن يواجهنا ضرب من التأملات المقارنة ، حتى فى مؤلفات أولئك الذين يعتقدون أنه لا توجد تعددية واقعية فى المسائل الأخلاقية . وأن جوهر الأخلاق الإنسانية واحد بعينه فى العالم ، بصرف النظر عن الزمان والمكان .

فى الأغلبية الساحقة من هذه الحالات ، مع ذلك ، تُستنتَج نتائج شاملة من التأملات المقارنة للمصطلحات الأخلاقية المستندة إلى عملية « تحويل » لاشعورى للتصورات، وقد بيَّن «البروفسور موريس كوهن P. Morris Cohen » فى كتابه « مقدمة للمنطق » خطر التساهل المفرط فى التعويل على التسوية بين الكلمة اليونانية areté وكلمة virtue الإنجليزية(أى : فضيلة) ، فى مناقشة

نظرية أرسطو فى الإنسان الفاضل ، فهو يلاحظ أن كلمة virtue الإنجليزية ، التى تستعمل غالبًا كترجمة مساوية لكلمة areté ، هى كلمة مضللة جدًا ، وإن كلمة areté تترجم بدقة أكبر بكلمة excellence ، التى تعنى « موضع الإعجاب » ، لكنني يجب أن أُنحّى جانبًا الآن مسألة ما إذا كانت نظريته صحيحة أم لا ، ولْنُسَلِّم - من أجل تيسير عرضنا للموضوع - بأنه قد ثبتت صحتها عن طريق الفحص الدقيق لكل فقرة وردت فيها كلمة areté ، ولْنَفْرِضْ الآن أن شخصًا ما قد شرع فى كتابة بحث عن مفهوم الفضيلة (areté) عند اليونان القدماء وجمع معطياته من الترجمات الإنجليزية لأفلاطون وأرسطو التى تترجم فيها كلمة areté بكلمة virtue على نحو مطرد دائم ؛ أو كما يحدث غالبًا ، يقوم ذلك الشخص بعملية تحويل للمفاهيم كلما صادف كلمة areté فى النص الأصلى، إن الخطورة فى محاولته هذه واضحة . إنه بعد أن سَلَّم بصحة التسوية الخاطئة بين اللفظين (virtue = areté) دون أن يتريث لحظة لاختبار صحة مُسلَّمته تلك ، قد ينقاد إلى مناقشة عقيم عن طبيعة « الفضيلة » اليونانية ، أو عن الاختلافات فى الرأى بين الشعبين اليونانى والإنجليزى فى جوهر « الفضيلة» ، إن مضمون دلالة الكلمة الإنجليزية virtue سوف يُقرأ ، بهذه الطريقة ، ودون مسوغ ، ولا شعوريًا ، كأنه مضمون دلالة كلمة يونانية لا تشترك مع الكلمة الانجليزية فى شىء فى الواقع ، باستثناء بعض الدلالات الغامضة على الامتياز الشخصى والجدارة بالإعجاب .

ومن سوء الحظ أن أخطاء كثيرة جدًا من هذا القبيل تقابلنا فى المؤلفات المعاصرة فى علم الأخلاق ، ويتضح ذلك بدقة حين نفحص ، مثلاً ، مؤلفات بعض الأساتذة الغربيين الذين لم يستفيدوا من أية مصادر سوى الترجمات الإنجليزية فى تكوين وجهات نظرهم عن فكرة « الصالح » (أو العمل الأخلاقى الحسن) وفكرة « العدل » فى فلسفة الشنتو Shintoism اليابانى والكونفوشيوسية الصينية ، ففى اللغتين اليابانية والصينية عدد من الكلمات التى تكافىء بدرجات متباينة الكلمتين الإنجليزيتين Justice، Righteousness (أى : الصلاح ، والعدل) ؛ لكن من المشكوك فيه إلى أبعد حد أن يُسوِّغ ذلك إيجاد علم أخلاقى مقارن استنادًا إلى مثل ذلك التكافؤ الغامض ، والشىء نفسه يقال على الكلمة العربية « صالح » التى سيخضع مضمونها

الدلالى لتحليلات دقيقة فى فقرة تالية »[1] إن هذه الكلمة (صالح) تترجم عامة بكلمة Righteous الإنجليزية ، وسوف أُبيِّن ضآلة ما تشترك فيه مع هذه الصفة الإنجليزية فى مكوناتها الدلالية .

إننى أبعد ما يكون عن الزعم بأن كل المحاولات التى من النوع الذى وصفته توّا عديمة القيمة ولا معنى لها كليةً ، فإن زعمًا كهذا إنما هو ضرب من المجازفة الخاطئة ، وكل ما أريد توكيده هو الخطورة الماحقة لانقيادنا اللاشعورى إلى تبنى نظريات خاطئة عن طبيعة الأخلاق استنادًا إلى تصورات مترجمة نصنعها لأنفسنا ، بأيدينا ، دون أن نحاول تحليل التصورات الأصلية نفسها تحليلاً علميًا دقيقًا ، إننى لست من المؤمنين بالفلسفة النسبية التاريخية المتطرفة ، فإننا كلما أَمْعَنَّا فى دراسة النظم الأخلاقية ، كما يقول « نُوويل سميث Nowell - Smith » أَلْفَيْنَا أنها لا تختلف حول المسـائل الكبرى الأساسية ، وأن الاختلافات القائمة ترجع إلى اختلاف الآراء فى الحقائق التجريبية ، ومن ثَمَّ فإن كل النظم تتفق على أن من واجبنا أن نقابل الخير بالخير ، لكن الامتثال لهذه القاعدة (أو الواجب) ينطوى على ضروب عديدة مختلفة من السلوك ، بقدر اختلاف وجهات النظر التى يتبناها مجتمع معين تجاه ماهية العمل الصالح للآخرين ، والظاهر أنه مصيب فى هذا، وربما لا يسع أحدا أن يعترض عليه ، طالما كان يتحدث عن النظم الأخلاقية فى حدود المبادىء العامة المجردة ، بعيدًا عن كل اختلافات الرأى الناشئة عن الحقائق العينية ، على هذا المستوى العالى من التجريد ربما تكون الطبيعة الإنسانية هى هى بعينها فى العالم كله ، ولا أنكر إمكانية أن نؤسس ، بهذه الطريقة ، عددًا من القواعد الأخلاقية العامة جدًا ، والمشتركة لدى كل الكائنات الإنسانية بوصفها كائنات إنسانية .

إن المشكلات الأخلاقية الأساسية تثور ، فى اعتقادى ، فى المجال الأدنى - مجال الحقائق التجريبية - والتجربة العملية ، هنا ، فى خضم الواقع العينى للحياة البشرية فى المجتمع ، يتشكل المضمون الدلالى لكل مصطلح أخلاقى ، وإذا كانت النظرة إلى ماهية العمل الصالح تتباين من مجتمع إلى

---

(١) فى كتابه السالف الذكر ، لا فى هذه الدراسة . المترجم .

مجتمع، فلابد ضرورة أن تكون دلالة كلمة «صالح» (good) ذاتها مختلفة عن غيرها فى كل حالة، غير أن هذا يَفْتَرض سلفًا وجود كلمة ما فى كل لغة تكافئ إلى حد كبير أو قليل، فى المعنى وفى الاستعمال، الكلمة الإنجليزية « good » التى يُعتَرف بأنها من أشد الكلمات غموضًا وتشوشًا فى اللغة، ففى جميع الأحوال، تعنُ لنا ألاَّ نفترض مثل هذه الفروض التى لا مسوغ لها، إذا أردنا أن نتحاشى إسقاط الخصائص البنائية للغتنا نحن على مضامين الدلالات الخاصة بمفردات اللغات لدى الشعوب الأخرى.

إننى أعتقد أن هذه النظرات تكشف بوضوح عن الموقف الذى سأتخذه حيال الجوانب الدلالية للغة، إن موقفى الأساسى فى هذا العمل من أوله إلى آخره قوامه الالتزام بالموضوعية الدقيقة فى معالجة حقائق الملاحظة، والميل إلى التزام جانب معين بين النظريات المتعارضة فى الموضوع، لكن فيما يتعلق بالصلات بين اللغة والثقافة، فإنني سوف اتخذ موقفا محدَّداً تحديداً تامًا، ومن المحتم أن يُضفى هذا الموقف لونًا شخصيًا ملحوظًا على رؤيتى لمسألة المصطلحات الأخلاقية.

إننى سوف أميل بقوة إلى نظرية تعددية تقول إن نظرات الشعوب إلى ما هو صالح وما هو طالح، أو ما هو صواب وما هو خطأ، تختلف من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر، اختلافًا جذريًا، وليس فى التفاصيل التافهة التى يمكن أن تُفَسر على أنها مجرد درجات على سلّم التطور الثقافى الواحد، وإنما على أنها اختلافات ثقافية أبعد أساسية، وذات جذور فى أعماق العادات اللغوية لكل مجتمع خاص.

إن نظرية المعنى التى يتأسس عليها عملى هذا الراهن ليست إسهامًا أصيلاً لى بأى حال، إنه يستند على نوع معين من اللغويات التى طورها وصاغها البروفسور «ليو فايسجربر» - Leo Weisgerber فى ألمانيا الغربية، وسمَّاه التَّصورُ اللغوى للعالم Sprachliche Weltanschauungslehre، وتتطابق نظريته إلى حد كبير جداً فى براهينها مع ما يُعرف اليوم عامةً باسم اللغويات الثقافية ethnoliguistics بالارتباط بين الأنماط اللغوية والأنماط الثقافية، والتى ابتدعها إدوارد سابير Edward Sapir فى سنواته الأخيرة فى الولايات المتحدة، وكل مدرسة من هاتين لها خواصها المميزة، ولكن طالما أننا لا

نستطيع أن نناقشهما بالتفصيل الدقيق ، فسوف أُوَحِّدهما فيما يلى من هذه الدراسة مبينًا النقاط الأساسية فى براهينها ، تلك التى تهمنا مباشرة ·

وإننا بدلاً من وصف النظرية وصفًا تجريديًا ، سوف نبدأ بالنظر فى بعض الأمثلة العينية ، فَلْنَأْخُذ مثلاً الكلمة الإنجليزية « Weed » (نجيل) ، أحد القواميس يعرِّفها على أنها : « عُشب برى يطلع حيث لا يكون مرغوبًا » فهو باقتضاب عشب غير مرغوب فيه وغير مراد ، لكن فى عالم الواقـــع الموضوعى ، أى فى مجال الطبيعة ، ليس ثمة شىء اسمه « عشب غير مرغوب فيه » ؛ إن شيئًا من هذا القبيل لا يمكن أن يوجد إلا فى ذهن الإنسان الذى ينظر إلى المركَّب غير المتناهى لأشياء الطبيعة ، ويرتبه ، ويقوِّمه ، بحسب أغراضه المتباينة ، فتصوره للنجيل نتيجة لعمليات الترتيب والتنويع والتقويم والتصنيف ، وهو بهذا المعنى يتضمن وجهة نظر خاصة وموقفًا ذاتيًا معينا للعقل البشرى ·

ووجهة نظر البشر فى فطرتهم السليمة (أوحسِّهم المشترك) تفترض فى بساطة وبدائية وجود علاقة مباشرة بين الكلمات وبين عالم الواقع ، فالأشياء توجد أولاً ، ثم تطلق عليها أسماء مختلفة وترتبط بها كبطاقات تعريف ، وطبقًا لوجهة النظر النظرية هذه ، كلمة « مائدة » تعنى مباشرة ذلك الشىء العينى الذى يوجد أمام أنظارنا ، لكن مثال كلمة « نجيل » يبين بوضوح أن الأمر ليس على هذا النحو ؛ إنه يبيِّن أن بين الكلمة والشىء ، تتدخل عملية صياغة ذاتية معينة للواقع ، فعقولنا لا تصور بناء الواقع تصويرًا سلبيًا ، ولكنها تنظر إلى الواقع نظرة إيجابية فعالة ، موجهة بوجهة نظر خاصة ، أو من زاوية معينة ، وهذه الإيجابية العقلية هى التى يسميها الألمان « العقل geist » ، وهى التى تجعل الشىء يوجد وجودًا واقعيًا بالنسبة لنا ، فَثَمة إيجابية فعالة خاصة ، وصياغة للمـــادة المعطاة فى اتجاه معين ، تُمَارَس بين الواقع وبين اللغة ، وذلك هو على وجه التحديد المجال الصحيح للمعنى ، وفى التعبير الاصطلاحى الحديث ، قد يعبرون عن ذلك بقولهم إن كل كلمة تمثل عملية تصنيف لغوى خاصة ، لواقع غير لغوى ، والتصنيف يشتمل بالضرورة على العملية العقلية التى تُجَمِّع الأشياء العديدة المتفرقة فى وحدة واحدة ، وهذه

العملية غير ممكنة إلا على أساس مبدأ (أو معيار) معين ، هذا الأساس هو الزاوية المعينة التى منها ينظر الإنسان إلى الواقع ، وهى زاوية مشروطة بالثقافة والتاريخ .

إن مثال كلمة « نجيل » حالة شديدة الوضوح ، لكنه ليس استثناء بأى حال ؛ فكل الكلمات التى نستعملها لها طبيعة مماثلة فى جوهرها بدرجة أو بأخرى ، ولقد أوضح بنيامين هورف Benjamin Whorf فى مقارنة مذهبية مفصلة لمعظم اللغات الهندوأوربية الأكثر تمثيلاً ، كالإنجليزية ، والفرنسية والألمانية من جهة ، وبعض اللغات الهندية الأمريكية من جهة أخرى ، أوضح بجلاء تلك الحقيقة المدهشة القائلة إن هاتين المجموعتين من الناس تعيش فى العالم ، وتُجَرِّبُهُ ، بطريقتين مختلفتين اختلافًا كليًا ، إنهم يقسِّمون عالم الواقع أقسامًا (أو قِطَعًا) ويصنفونه أصنافًا مختلفة اختلافًا كليًا ، على أسس مختلفة اختلافًا كليًا .

ولعلنا نشرح هذه الحقيقة عن طريق الكلمة الإنجليزية « Table » (مائدة) ، فَلْنفرض أن أمامنا مائدتين إحداهما مستديرة والأخرى مربعة ، إن كلمة « table » تنطبق على كلتيهما ، وبعبارة أخرى ، نحن نصنف كلتا المائدتين المستديرة والمربعة بوصفهما « موائد » ، فالمائدة مائدة سواء كانت مستديرة أو مربعة ، تلك هى وجهة نظرنا فى فطرتنا السليمة (الحس المشترك) لكن وجهة نظرنا هذه تنبثق من الحقيقة التى نتجاهلها غالبًا ، والتى مؤداها أن عندنا تصورًا للمائدة لا يلعب فيه الشكل دورًا حاسمًا ، وبسبب هذه الخاصية النوعية لتصورنا للمائدة نُصَنِّفُ شيئين مختلفين اختلافات فردية بوصفهما « شيئًا واحدًا » ، وفى الواقع الخارجى ، المائدة المستديرة ، والمائدة المربعة أمام أعيننا كيانان مختلفان ، ولكنهما فى عقولنا شيء واحد بعينه ، وبصفة جوهرية ، أقول : « بصفة جوهرية » : هذا الجوهر (أو الماهية essence) يزودنا به موقفنا العقلى الأساسى .

ولقد دُهش بنيامين هورف حين وجد شعوبًا فى أنحاء العالم غير الهندوأوربية ، تصنِّف الأشياء وتُنَوِّعُها بحسب أشكالها الأساسية : مستديرة ، مربعة ، مستطيلة ، مكعبة ، مصمتة ، سائلة ، الخ . فبالنسبة لهم ، معيار الشكل

أو الصورة هو الحاسم فى تحديد ما إذا كان الشئ ينتسب إلى هذا الصنف أو ذاك، وفى نظر أولئك القوم، المائدة المستديرة والمائدة المربعة شيئان مختلفان اختلافًا كليًا، ويتحتم أن يُشار إليهما باسمين مختلفين، ومن وجهة نظرهم ثمة سُخف، وتعسف شديد، ولا منطقية، وعدم اتساق مع بناء الواقع ذاته، فى أسلوب التصنيف الغربى حيث يُزَج بأشياء مختلفة، مثل الأشياء المستديرة والأشياء المربعة، معًا، وعلى نحو يعوزه التمييز، داخل صنف واحد بعينه.

من هذا المثال اليسير بوسعنا أن ندرك بجلاء أنه ليس ثمة تكافؤ موضوعى دقيق، وبسيط، يتناظر فيه الشئ واسمه أحدهما إزاء الآخر، إذْ يتدخل بينهما نشاط عقلى معين، كما يتدخل الفعل الخلاَّق للرؤية الذاتية للشئ كشئ، وكذلك تتدخل نظرية معينة، وفى مثال « المائدة » تبعًا لهذا، الرؤية الخاصة التى نتبناها (فى الغرب واليابان) هى رؤية مذهب المنفعة البرجماتى فنحن نُغفل معيار المستدير والمربع، ونصنفهما معًا « كمائدة »، ببساطة لأنهما شيئان مصنوعان لخدمة غرض واحد بعينه، هنا يتراجع بطبيعة الحال الاختلاف الشكلى إلى المؤخرة، فى حين أن شكل الشئ عند شعوب أخرى هو على التحديد العنصر الحاسم، لأنهم ينظرون إلى العالم بلغة الشكل لا بلغة الغرض.

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لكلمة بسيطة ككلمة « مائدة » فإن الفرق سيزداد كثيراً فى حالات الكلمات الأقل ذيوعًا والكلمات المعبرة عن المجردات العليا، وكل من حاول الترجمة من لغة إلى أخرى يعرف كم هو عسير ومحير أحيانا أن ينقل نقلا وافيًا كلمة شائعة إلى كلمة أو عبارة مكافئة لها فى لغة أخرى، إننا غالبًا ما نستسلم ونقول ببساطة: « إنها لا تقبل الترجمة مطلقًا » كما فعل الدكتور فاوست Faust فى الجزء الأول من كتاب « جوته »، حين أخذ يناضل لحل مشكلة ترجمة كلمة: « Logos » من اليونانية إلى الألمانية.

إن هذا كله يرجع بصفة نهائية إلى الحقيقة القائلة إن كلاً من هذه الكلمات المستعصية على الترجمة ينطوى على موقف عقلى يتصف بخصوصية كبيرة وينتسب إلى المجتمع صاحب اللغة، لكن هذه بعض الحالات المعينة فقط

حيث يتجلى بوضوح تام وغير عادى تدخل وجهة نظر معينة تصبغ معانى الكلمات بصبغتها ، وإن أردنا الصدق ، هذا هو الوضع نفسه بالنسبة لأية كلمة فى أية لغة ، مع اختلاف كثير أو قليل ، وإن الاختلاف فى هذه الناحية بين كلمة « مائدة » وكلمة Logos ليس عظيمًا كما قد يتراءى لأول وهلة .

إن كل كلمة فى لغتنا تمثل وجهة نظر نرى العالم من خلالها ؛ وما نسميه « تصورًا » ليس سوى تبلور لوجهة النظر الذاتية تلك ؛ أى أن التصور صيغة ثابتة بدرجة أو بأخرى تتطلبها وجهة النظر تلك ، وبطبيعة الحال ، الذاتية فى وجهة النظر قيد البحث ليست ذاتية فردية ، بل اجتماعية ، لأنها ملكية مشتركة للمجتمع كله ، انحدرت إليه من عصور خلت عن طريق التقاليد التاريخية ، ومع هذا هى ذاتية بمعنى أنها تضيف بعض الاهتمامات الإنسانية المؤثرة إلى تمثلنا التصورى للعالم بحيث نجعله لا يكافىء العالم الواقعى الموضوعى تكافؤًا دقيقًا ، وعلم الدلالات اللغوية (علم دلالات الألفاظ) دراسة تحليلية لوجهات النظر تلك التى نجدها متبلورة فى الكلمات .

إن تجربتنا المباشرة بعالم الواقع هى فى ذاتها كلٌّ لا يختلف ، كما قال هنرى برجسون Henri Bergson » وقد سمى القدماء ذلك الكل « هَيُولَى » أو مادة أولى (هَيُولَىَ العرب) ورأى فيها الوجوديون ، مؤخرًا ، كتلة مشوشة ، مضطربة فيها يفقد كلُّ شىء محيطه ، ويحيل العالم نَفْسَه إلى كتلة قذرة ، عادية ، عمياء ، من العجين ، لا تثير سوى الغثيان ، وقد نَحَتَ العقل البشرى فى تلك الكتلة التى لا تمايز فيها عددًا من الأشكال أو الصيغ وعزلها إحداها عن الأخريات، وعدد تلك الصيغ وطبيعتها يتباين من شعب إلى شعب، ويتباين فى تاريخ الشعب الواحد من عصر إلى عصر ، والمفردات الغنية ، كمفردات اللغة العربية ، تبين أن الشعب الذى يتكلم اللغة قد عزل وحدات مستقلة من ذلك الكل الذى يشكل العالم الواقعى أكثر من أى شعب آخر لغته فقيرة فى مفرداتها ، والأمر المهم ، على كل حال ، هو أن كل شعب قد سلك طريقه الخاص فى تحديد ما يحب نحته وعزله ، وفى وجهة النظر التى توجِّه ذلك ، ومعنى هذا أن عملية النحت للأشكال ، وفصلها وعزلها ، مرهونةٌ دائمًا بالاهتمامات الذاتية الخاصة لكل مجتمع ، ومُوَجَّهَةٌ بتأثيرها ، وهى لا تتأثر تأثرًا عميقًا بالتماثل الموضوعى القائم بين الأشياء مثلما تتأثر بوجهة النظر

الذاتية التى ينظر الإنسان إلى الأشياء من خلالها ، فأى جانب من جوانب العالم الواقعى يبدو أن له مغزاه بالنسبة لآمالنا ، أو قلقنا ، أو رغبتنا وإرادتنا ، أو عملنا وفعلنا ، يُجَنَّب على حدة ، ليصبح قطعة مستقلة ، ثم يُوسَمْ باسم ، وبذلك يصبحُ تصورًا » ، فالاختيار لا يقع إلا على ما يرتبط ببؤرة اهتمامنا الشخصى الذاتى ، وما نشعر بأنه جوهرى لمشروعنا الكُلِّى للحياة ، ذلك هو فحسب ما يقع عليه الاختيار من بين تيـار الانطباعات المتدفق أبدًا ، ثم إنه يُثَبَّت ، فى كلمة معينة ، هى ما نسميه « اسمًا » .

بهذا رسم العقل الإنسانى على كتلة الوجود التى لا صيغة لها أصلاً ولا شكل عددًا من الخطوط لا حصر له ، وقسمه أقسامًا وقطَّعه قطعًا كبيرة وصغيرة ، وبهذه الطريقة وُسِمَ عالم الواقع بالبصمات الناتجة عن عملية الصياغة اللغوية والتصورية وبذلك فُرِض النظام على الفوضى والاضطراب الأصلى .

إن الكلمات ، والتصورات التى تمثلها ، تشكل نظامًا معقدًا ، مرتبط بمفاصل عديدة ، وهذا الشكل المنظم ككل يقوم بدور يشبه دور شاشة تتوسط بين العقل البشرى وبين الواقع قبل أن يخضع للتصورات ، فلا يبلغ العقلُ الواقعَ إلا بعد أن يكون قد تحور ، وأُدرِك ، بل حتى تَشَوَّه بفعل العازل الذى يتمثل فى الشاشة .

ونحن عادة نألف تلك الشاشة المتوسطة ، وهى شىء طبيعى وشفاف جدًا بحيث إننا لا نعى بوجودها ، ونحن نعتقد اعتقادًا ساذجًا أننا نجرب العالم الموضوعى مباشرة ودون أية وسائط ، كما هو موجود بطبيعته ، وبحسب وجهة النظر العامة العادية للفطرة (أو الحس المشترك) هذه ، يوجد العالم الطبيعى والموضوعى فعلاً أمام أعيننا منذ البداية ذاتها ، بمفاصله وأقسامه ، وقد رُتِّب ترتيبا حسنا ونُظِّم تنظيمًا تاما ، إننا نعتقد ببساطة أننا ندرك هذا العالم المنظم ، ونشكل فى عقولنا عددًا من التصورات بقدر ما يوجد من أقسامه الطبيعية ، ثم نسميها بأسماء ، وبذلك نصنع مفرداتنا اللغوية .

إن وجهة النظر العامة هذه تجهل الحقيقة القائلة إن أى جانب مدرك من جوانب العالم الواقعى - ناهيك عن العالم الواقعى ككل ذلك الذى سماه اليونان : « فوضى » ، إن أردنا الدقة فى التعبير - يمكن أن يُقَسَّم إلى أى عدد

من القطع تريدها ، وبأية طريقة تريدها ، ومن أية زاوية تُفَضِّل ، ودون الفعل العقلى الذى يُقَسِّم المواد الخام للتجربة المباشرة إلى عـدد من الوحـدات المستقلة - وهو فعل الفصل كما يُسَمَّى فى علم الدلالات - فإن العالم لابد أن يكون سخيفًا فاقدًا لكل المعانى ، كما يقول الفلاسفة الوجوديون ، ونحن لا نحتاج إلى إحداث ذلك الفصل بأنفسنا ، لأن ثمة دائمًا نظامًا جاهزًا فى شكل مفردات لغوية كتراث ثقافى موروث عن أجدادنا ؛ ونحن نتمثله فى الطفولة حين نتعلم لغتنا .

إن الواقع المباشر للوجود ، أيًا كان ، ليس متمثلاً لفكرنا كما هو موجود فى أصله وطبيعته ، وإنما هو يتمثل بالأخرى من خلال وسيط عازل من الرموز المسجلة فى مفرداتنا اللغوية ، هـذا الوسيط العازل الشفاف ليس صورة دقيقة أونسخة مطابقة للعالم الأصلى ، فالرموز لا تكافىء أشكال العالم الواقعى تكافؤًا دقيقًا ؛ فهى على الأرجح أشكال أو صيغ فكرية ، وهى تقوم مقام النائب عن العالم ، أو عميله ، ومن خلالها يصبح أى شىء موضوعًا واقعيًا لإدراكنا العقلى .

وأهم من هذا أن نلاحظ فى هذا الشأن أنه ليس لكل مجتمع طريقته الخاصة فى عزل القطع والوحدات فحسب ، والتى تكون من خصوصياته تبعًا لذلك ، بل إن تلك القطع والوحدات أيضًا تشكل بذاتها نظامًا خاصًا ، إنها لا توجد ببساطة دون أى نظام ، كلاً ، إنها على العكس تشكل كُلاً منظمًا تنظيمًا عاليًا ومعقدًا جدًا ، والطريقة التى بها تمتزج وتترابط كل منها بالأخرى لا تقل خصوصية للمجتمع عن طبيعة القطع ذاتها ، وهذا الكل المنظم الخاص بمجتمع معين هو ما يسمى بالمفردات اللغوية .

إن المفردات اللغوية ، واللغة بالأعم ، بما تنطوى عليه من نسيج سداه ولحمته أنواع من الدلالات ، هى بمثابة نظام من الصيغ « العازلة » التى تُقَسِّم التيار التصورى المتدفق للطبيعة ، فى توافق تام معها ، إلى عدد معين من الوحدات والأحداث . وبتعبير « بنيامين هورف » فى الموضوع ، كل لغة هى : « تحليل إقليمى للواقع » ، طالما أن : « أية لغة تُشَرِّح (تُقَسِّم) الطبيعة تشريحًا مختلفًا » ، حتى التجربة العادية الواحدة بعينها تُقَسَّم فى اللغات

المختلفة عادة بطرق مختلفة ، ومن موقف واحد بعينه ، تميل اللغات المختلفة إلى عزل وتجنيب أصناف مختلفة من الأشياء الأساسية ؛ ولكل لغة طريقتها الخاصة فى تصنيف الوحدات التى عُزلت فى أعداد معينة من النظم الأعلى التى ينضم بعضها إلى بعض ضمن شبكة شاملة من التصــورات ، وتلك هى (شبكة) المفردات اللغوية ·

إن أية مفردات فى أية لغة ، وأى نظام للدلالات ، يمثل وجهة نظر خاصة إلى العالم Weltanschauung وينطوى عليها ، وهى التى تحيل المادة الخام للتجربة إلى عالم « مُفَسَّر » له معنى ، والمفردات اللغوية بهذا المعنى ليست بناءً من طابق واحد ، إنها تشتمل على عدد من (شبه اللغات) شبه المفردات sub - vocabularies ، توجد جنبًا إلى جنب ، وبينها مناطق تداخل وتشابك ، وشبكة التصورات التى تشكلهـا المصطلحات الأخلاقية هى « شبه مفردات » مستقلة نسبيًا ، قوامها عدد من القطاعات التصورية المستقلة نسبيًا ، وكل قطاع يمثل نظرة خاصة فى العالم ·

ومن الناحية الدلالية للألفاظ ، النظام الأخلاقى هو قطاع من العالم المفَسَّر تفسيرًا يكسبه معنى ، وهذا الذى نقرره هنا قد يذكر القارىء فى الحال برأى الدكتور جون لادْ John Ladd الذى دافع عنه فى كتابه المرموق « بِنْيةُ نظامٍ أخلاقى » ومؤداه أن أى نظام أخلاقى إنما هو جزء من ثقافة ما،وفى الحقيقة ، ثمة نقاط تشابه عديدة بين وجهة نظرى ووجهة نظره ؛ وهذا التشابه قد يرجع فى التحليل الأخير إلى حقيقة مؤداها أننى فى تكوينى لنظريتى أدين كثيرًا جدًا لِرُؤَاهُ النافذة العميقة فى طبيعة البحث الأخلاقى ، ومع ذلك ثمة فرق أساسى بيننا ، وهو أنه أجرَى بحثه لأخلاق « النافاهو Navaho » مستندًا إلى البرهنة على تمايز المقولات الأخلاقية (أو التقريرات الأخلاقية) من « الجمل » ، وبتعبير أكثر واقعية ، هو عوَّل على المعلومات المترجمة واتخذها دليلاً أوليًا ، ففي بداية كتابه نجده يحاول أن يسوغ موقفه بأن يميز تمييزًا جليًا بين « الجملة » و « الحكم » ، فالجمل القائلة : « البيت أبيض » "Das Haus ist weiss" " la maison est blanche " ," The house is white " هى جمل مختلفة ، لكنها جميعًا تقرر حكمًا واحدًا ، وهو يجـــادل للبرهنة

على ذلك ، ففى أى « حكم » ليس على المرء أن يحدد تحديدًا نوعيًا دقيقًا ماهية الكلمات المستخدمة فعلاً لتبليغه ، ولا يهم إطلاقًا بأيه لغة يُصاغ ، ثم إنه يمضى إلى القول إن هذه الخصيصة فى الأحكام كانت ذات قيمة كبرى له خاصةً فى وصف مقابلاته مع مُخبريه من الوطنيين؛ فإذا لم يكن يفهم لغة - الناڤاهو » فقد استطاع أن يعرف أحكامهم(أو مقولاتهم) التى يستخدمونها فى لغتهم .

وبعدُ ، فهذا (العمل) كما أوضحتُ فيما سبق ، هو على التدقيق عكس ما سوف أفعله فى عملى هذا ، ففى نظرى ، الجمل المنطوقة فى كلام المتكلم هى الجديرة بأعظم الاهتمام ، وليس الأحكام التى يقال إنها تظل هى هى بصرف النظر عن اللغة التى تتدثر فيها ، ويبدو لى أن من المشكوك فيه إلى حد كبير وجود شيء اسمه « حكم » تشترك فيه لغات عديدة مختلفة ، وإذا كانت كلمات شائعة مثل : « أمّ » mother , mére ، كما أوضح البروفسور روجر براون Pr . Roger Brown غير متطابقـــة تطابقًا دقيقًا ، وإذا كانت كلمـــة « amie » الفرنسية تختلف اختلافًا مهمًا عن الكلمة الألمانية Freudin والإنجليزية Lady Friend (صديقة - خليلة) ، فمن غير المحتمل إلى حد كبير أن تكون جملة مستعملة لتبليغ حكم أخلاقى فى لغة من اللغات متكافئة تكافؤًا دقيقًا مع نظائرها فى اللغات الأخرى .

وقد لاحظ « إدوارد سابير » مرارًا أن أنماط الدلالات الاجتماعية تتحكم إلى حد بعيد فى أفعال الإدراك الحسى البسيطة نسبيًا ، وتبعًا لذلك كانت نسبية تبعًا للثقافة ، وإذا كانت هذه هى حقيقة أفعال الإدراك الحسى ، فإن هذه الحقيقة لا بد أن تَصْدُق إلى حد كبير على أفعال التقويم فى مجال السلوك والخلق البشرى ، وكل ثقافة لها عدد من الأنماط التقليدية الموروثة للتقويم الأخلاقى تبلورت عبر التاريخ فى شكل مصطلحات أخلاقية تزود المتحدثين شفاهة بمجموعة كاملة من القنوات من خلالهـــا يصنفون كل الظواهر الأخلاقية ، وباستعمال أنماط الدلالات الخاصة بالألفاظ فى لغتهم الأصلية يستطيع أعضـاء مجتمع ما بيسر أن يحللوا ، ويبينوا ، ويـقوِّموا ، أى عمـل أو خُلُق إنسانى ، غير أن هذا يتطلب الالتزام بالعيش فى توافق دقيق مع معايير التقويم المدونة فى المصطلحات الأخلاقية لتلك اللغة .

فكيف نبتدع منهجًا علميًا يُوثَقُ به لتحليل البِنْية الأساسية لمجال دلالات مثل هذا ؟ كيف يمكن معرفة أصناف الدلالات اللغوية فى لغة معينة بطريقة تحقق مقتضيات البحث العلمى ؟ وإننى أقصد بكلمة « علمى » أساسًا الدراسة التجريبية أو الاستقرائية ، وفى السياق الخاص بالبحث الحالى ، أقصد بها الدراسة التحليلية للمصطلحات الأخلاقية التى تتضاءل فيها الأحكام المسبقة إلى أبعد حد ممكن فى أى موقف نظرى نتخذه فى الفلسفة الأخلاقية ·

إن أحسن طريقة نتبعها فى رأيى هى أن نحـاول وصف نـوع دلالة اللفظ ، من خلال الأحوال أو الظروف التى يستعمل فيها ، وما السمات الضرورية للظرف تلك التى تجوِّز لنا استعمال اللفظ استعمالاً سديدًا نشير به إلى حَدَثٍ معين ؟ إننا بمحاولة الجواب عن سؤال كهذا فحسب نستطيع أن نصل إلى المعنىً الصحيح لكلمة معينة ·

وأساس اختيارى لهذا المنهج هو اقتناعى بأن اللغة فى نواحيها الدلالية هى أولاً ودائمًا تعبير مهم عن الميل إلى التصنيف ، وهو الميل الذى يميز العقل الإنسانى بجلاء ·

والمصطلحات الأخلاقية الدينية فى لغة معينة تشكل نسقًا معينًا من الأصناف داخلاً ضمن النسق الدلالى الأوسع للغة موضع النظر ، والمشكلة الأساسية أمام الباحث هى أن يبحث عن المحمولات (الصفات) التى تعيِّن وتعرِّف كل مصطلح ، والتى بفضلها يمكن تصنيف عدد لا حصر له من الأشخاص ، أو من الأفعال ، المختلفين اختلافًا جليًا ، ضمن نوع واحد ، ثم يُطْلق عليه اسم مشترك بناءً على ذلك ، وبالفحص التحليلى للمصطلحات الأخلاقية الدينية فى لغة ما ، قد يتأتى للباحث تدريجيًا أن يعرف البنية الأساسية للنسق التى تتم من خلالها تنقية كل الأحداث المنطوية على أحكام أخلاقية ، قبل أن تظهر فى صيغة مقبولة لأعضاء مجتمع تلك اللغة ·

هذه العملية التى وصفتها تَوًا هى على التحديد عملية التعلم لدى الأطفال ، ففى هذا النوع من البحث يعمد الباحث إلى وضع نفسه موضع الطفل الصغير الذى يبدأ فى التكلم بلغة أمه ، أو موضع الباحث اللغوى الذى يواجه لغة مجهولة له كليةً ، والطفل يتعلم استعمال كلمة « تفاحة » بملاحظة

سلوك والدته ومعلمته فى تسميتها ، ومن ثم يقيم علاقة دلالة بين الكلمة والنوع المألوف من تلك الفاكهة ، وبتكرار هذه العملية مرات عديدة يصل إلى تجميع أمثلة جديدة داخل النوع « تفاحة » ، عن طريق الخصائص المدركة مثل الحجم واللون والشكل ، ويتعلم الطفل بهذه الطريقة نفسها استعمال المفردات الأخلاقية ، والطريقة التى يتعلم بها الطفل تطبيق مصطلح أخلاقى معين على نوع معين من المواقف لا تختلف فى أية ناحية جوهرية عن الطريقة التى يتعلم بها تطبيق كلمة « تفاحة » على نوع معين من الأشياء .

وربما يكون من المفيد أن نُذكِّر أنفسنا فى هذه المرحلة الدقيقة من بحثنا بلعبة الكلمة الأولى The original word game التى أشار إليها « روجر براون » ، فى هذه اللعبة يحاول اللاعب ، عن طريق الملاحظة الدقيقة لاستعمال معلمه للكلمة الأصلية ، أن يربطها بنوع معين غير لغوى ، ولكى ينجح اللاعب ، عليه قبل أى شىء آخر ، أن يعزل السمات المعيارية الفارقة للنوع غير اللغوى عزلاً صحيحًا ، بعبارة أخرى ، يجب عليه أن يكتشف ما نوع الباعث المعين الذى استثار ذلك النوع من الاستجابة اللفظية من معلمه .

وهذه ليست مهمة يسيرة ، ففى معظم الحالات يتحتم المرور : « بعملية محاولة وخطأ كاملة » قبل أن يستوعب اللاعب ، كما ينبغى ، استعمال المعلم للكلمات ، وهذه الواجبات هى بصفة أساسية ما يتحتم على باحثنا أن ينهض به ، فهو يبدأ بملاحظة دقيقة لكل الأمثلة المتاحة للاستعمال الفعلى للمصطلحات الأخلاقية الدينية ، ويحلل بحذر سياق الكلام فى المواقف المختلفة ، ويفرض الفروض ، ويتحتم عليه بعد ذلك أن يمتحنها فى مواجهة المزيد من الشواهد ، وأن يراجعها إذا كانت المراجعة ضرورية ، وبذلك يأمل فى الوصول إلى حل مُرْضٍ لمشكلته .

وهذا فى الجملة هو ما سنطبقه على المصطلحات الأخلاقية الدينية فى القرآن ، لكننا بطبيعة الحال لسنا معاقين بقوة مثل الطفل الذى لا يعرف أية لغة ، ولا مثل الباحث اللغوى الأنثروبولوجى ، لأن اللغة العربية الفصحى واحدة من أحسن اللغات المعروفة فى العالم ، وهى معروفة فى أدق تفاصيلها النحوية والصرفية ، ولدينا معاجم جيدة ؛ وقد أُنجز عمل كبير فى مجال فقه

اللغة التاريخى والمقارن ، وفى مجال تفسير القرآن على الخصوص ، يمدنا المسلمون بالعديد من كتب التفسير القديمة المعتمدة ، ومع هذا فإن مبدأنا المنهجى يمنعنا ، لأسباب نظرية ، من التعويل أكثر مما ينبغى على هذه المصادر الثانوية ، إنها يجب أن تستعمل ، على أكثر تقدير ، كمصادر مساعدة قيِّمة ، ولا يجب أن ننسى أنها قد تبرهن على أنها مضللة أكثر من كونها مضيئة ، إذا لم نكن حذرين جدًا فى استمداد الشواهد التى تقدمها ·

إن كل ما قلتُ ربما يترك انطباعًا بأننى أُعَسِّر المسألة دون داع ، باعتبار أن موضوع بحثنا لغة معروفة معرفة جيدة ، إننى آمل أن يتَّضح لنا بالتدريج فى سياق هذا الكتاب أن هذه ليست الحقيقة ، وهنا أريد فحسب أن استلفت الانتباه إلى مسألة واحدة مهمة ، إن منهجى هذا الذى يبدو مملاً ملتويًا ، له ميزة جلية يمتاز بها على سائر المناهج بوصفه منهجًا عمليًا لمعالجة المصطلحات الأخلاقية ، إنه يمكننا من تحليل ألفاظ التقويم الأخلاقى بواسطة العملية نفسها التى نحلل بها أنواع الألفاظ الأخرى ، فالمصطلحات الأخلاقية ، إذا نظرنا فيها بهذا المنهج ، خصوصًا تلك التى تنتمى إلى المستوى الأوَّلى فى اللغة الأخلاقية ، تتساوى والألفاظ العـادية مثل : « مائدة » و « تفاحة » ، و « يأكل » ، و « يمشى » أو « أحمر » ، لأن عملية التعليم فى الأساس واحدة بعينها فى كل ضروب الألفاظ ·

* * *

تحليل ونقد

١ - لعل من أهم العناصر الإيجابية فى دراسة إيزوتسو هذه الاستناد إلى القرآن الكريم فى تفسيره لمعانى المصطلحات الأخلاقية فيه ، وهذا هو المبدأ الحاكم فى مذاهب التفسير بالمأثور التى سادت فى مكة فى عهد الصحابة والتابعين ﷺ جميعًا ، وطُبِّقت دون انقطاع إلى يومنا هذا ، قالوا : إن القرآن يفسر بعضه بعضًا ، فإذا أُرِيدَ معرفةُ معنى الرحمة - مثلاً - كان على المفسر أن يستعرض كل الآيات التى وردت فيها هذه الكلمة بالتحليل والمقارنة ، مستعينًا بالأحاديث النبوية التى تحدثتْ عنها ، لكى يخلص إلى معنى الرحمة ودلالاتها ، وقد حاول إيزوتسو تطبيق هذا المنهج نفسه فى كتابه ؛ وكشف عن توجهه هذا فى صدر دراسته ، وإن لم يعترف بأنه نقله أو اقتبسه عن المفسرين المسلمين ، ويمكن القول إن هذا المنهج قد عَصَمَ إيزوتسو من كثير من الأخطاء والمزالق ، وإليه يرجع الفضل فيما أصاب من نجاح .

٢ - وقد اقتضى هذا المنهج العكوف على القرآن الكريم بصفة أساسية ، فى نَصِّه العربى ، وتحاشى التعويل على أية ترجمة أجنبية له ، بعد أن بَيَّن إيزوتسو أوجه القُصور الفاحشة فى الترجمة ، وفى « الترجمة اللاشعورية » أو « التحويل » الذى يقترفه الأجنبى حين يقرأ نصًا فى لغة أجنبية ، وهذا أيضًا عنصر إيجابى فى دراسته ، وتحذير مهم جدًا لكل من يترجم نصوصًا ثقافية من لغة إلى أخرى ؛ وأشار إيزوتسو إلى إخفاق الأساتذة الغربيين فى فهم فلسفة « الشنتو » وفى فهم « الكونفشيوسية » نظرًا لاعتمادهم على ترجمات إنجليزية لها ، ولو أنه نظر فى الترجمات الأجنبية للقرآن الكريم لوجد أفحش الأمثلة للقُصور وسوء الفهم ، فضلاً عن التدليس أو التلبيس المقصود ، وأَحْسَبُ أنه قد قرأ شيئًا فى تلك الترجمات ، لكنه لم يُعْنَ ببيان الآفات القاتلة التى تتجسد فيها .

ونظرًا لأن إيزوتسو يجيد العربية ، فإننى أرجح أنه استفاد من الفقهاء المسلمين الذين تناولوا موضوع ترجمة معانى القرآن الكريم ، ابتداء من الإمام

الشافعى ، ثم ابن قتيبة ، والشاطبى ؛ وكذلك الإمام الغزالى والإمام الرازى فى دراساتهم الأصولية وقد أكدوا أن الترجمة تقريبية ، ولا يوثق بها ، وهذا هو الشىء الذى ردده إيزوتسو فى دراسته هذه .

٣ - وكان لا بد لدراسة « اللغة والثقافة » أن تتناول العلاقة بين : العقل الإنسانى ، واللغة من جهة ، وعالم الواقع من جهة أخرى ، وفى حديثه عن هذه العلاقة ارتكب إيزوتسو أخطاء كبيرة ، وأول أخطائه أنه بنى نظرية كاملة فى الموضوع استنادًا إلى تحليله لكلمة واحدة ، هى كلمة Weed (نجيل) وكان عليه أن يحلل عددًا كبيرًا من الكلمات ، ومن أنواع مختلفة ، ولو أنه فَعَلَ لحملته المعلومات الجديدة على تغيير فكرته وتحوير نظريته ، أو حتى التخلى عنها .

إن كلمة Weed تُعَرَّف فى قاموس أكسفورد الصغير (الجيب) كما ذكر إيزوتسو ، على أنها تعنى : « العشب البرى الذى يطلعُ حيث لا يكون مرغوبًا فيه » لكنه لو كان قد فتح أى قاموس آخر ، مثل « ونستون » لَوَجَدَ الخصائص الموضوعية لذلك العشب ، ولما وجد عبارة « غير مرغوب فيه » تلك التى ضللته وقادته إلى مزاعم لا أساس لها عن دور العقل فى تكوين التصورات والمفاهيم والكلمات الدالة عليها ، وفى المعجم الوسيط (بالعربية) سُجِّلت الخصائص الموضوعية لذلك العشب ، خالصة من أية شوائب ذاتية ، فهو : « نبات عُشبى من الفصيلة النجيلية ، مُعَمَّر ، وَرَقُهُ كورق البُرِّ إلا أنه أقصر ، يفترش على الأرض ، ويذهب ذهابًا بعيدًا ، وله سوق أرضية ذات عقد كثيرة وأنابيب قصيرة ذات طعم حلو مَسِيخ ، يكثُر فى الأراضى التى تُسْقى ، فيضر الزرع » .

وهكذا أخطأ إيزوتسو فى فهم تصور كلمة « النجيل » ، بعد أن أخطأ فى الاكتفاء بها ! وشيد على هذين الخطئين الجسيمين نظرية شاهقة فى العلاقة بين العقل الإنسانى واللغة ، وبين العالم ، وتلك هى « غلطة الفلاسفة » ! أعنى بناء مذاهب معقدة فى الوجود والإنسان والمعرفة والحياة استنادًا إلى فكرة معينة ، فإذا ثبت أنها زائفة ، وكثيرًا ما ثبت ذلك ، إنهار المذهب على رأس الفيلسوف !

كان على إيزوتسو أن يوسع قاعدة التحليل لتشمل عددًا كبيرًا من الألفاظ ؛ وكان عليه أن يعتمد على المؤلفات العلمية فى معرفة التصورات والمفاهيم ، لأن العلماء، كلٌّ فى حقله، يقدِّمون لنا الخصائص العلمية الموضوعية للأشياء ، بريئة من أية إضافة ، ذاتية ، وبهذه الموضوعية يَصِلُون إلى القوانين ، وينجحون فى الاستفادة من قوى الطبيعة ، أما أن يلتقط الباحث كلمة من أحد القواميس ، ويبنى عليها نظرية، أو يقتبسها من غيره ، فذلك هو الخطأ القاتل ، ومن أعجب العجب أن إيزوتسو ينتهى من تحليل كلمة واحدة إلى الزعم بأن : («كل» الكلمات التى نستعملها لها طبيعة مماثلة فى جوهرها بدرجة أو بأخرى) .

فهل هذا هو الاستقراء العلمى ؟!

● إن هذا هو أشنع تعميم تعسفى يمكن أن يصادفه الباحث فى أى مجال علمى !

٤ - أما موقف إيزوتسو من الفلسفة النسبية ، ومن نقيضتها الفلسفة الإطلاقية ، فمشوب بالغموض ، فهو يعترف بأن الأخلاق ليست نسبية ، ويقرر صراحة أنه ليس من المؤمنين بالنسبية المتطرفة التى تزعم أن كل شىء يتغير بتغير المكان والزمان ، لكنه فى فقرة أخرى من دراسته يوضح بجلاء أنه يميل بقوة إلى نظرية تعددية تقول إن نظرات الشعوب المختلفة (إلى ما هو صالح وما هو طالح) تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ! وهو يسوغ هذا التناقض بالإشارة إلى مستويين فى الأخلاق : مستوى أعلى ، قوامه الأحكام العامة ؛ ومستوى أدنى قوامه الحقائق العملية .

والحق أن كل ما قاله لا يزيل التناقض الذى يغلف موقفه إزاء النسبية ، وكان عليه أن يُفَصِّل القول فى هذه المسألة ليزيل الغموض ولا يدع فرصة لسوء الفهم ، وأحْسَبُ أنه لو فَعَلَ لتَغَيَّرتْ نظرته إلى علاقة اللغة والثقافة ، وعلاقة العقل والواقع ؛ واشتراك الشعوب المختلفة ، وتماثلها ، فى النظرة إلى الوجود والحياة ، لأنه لو فعل لَمَالَ بقوة إلى المذهب المطلق الذى يقرر أن الحقائق لا تتغير ، لأنها أزلية ، ولكن معارف الإنسان بها هى التى تتغير فقوانين نيوتن كانت موجودة وفاعلة منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها ، وهى لم تتغير حين اكتشفها نيوتن ، ولن تتغير إذا عَدَّلَها عَالِمٌ آخر .

وكذلك القيم الخلقية ثابتة مطلقة ، وإن كان البعض يعْرِفُها والبعض الآخر لا يعرفها ، والإنسان هو الإنسان فى كل مكان وزمان ، على الرغم من فروق الجنس واللون ، واللغة ، فاختلاف اللغات يخفى وراءه اتفاق الهياكل اللغوية ؛ ففى كل لغة : اسم وفعل وحرف ٠٠٠ الخ ،وتركيب المخ الإنسانى هو هو فى كل الأجناس ، والبدهيات العقلية لدى الجميع واحدة ، ولكن درجة التطور الحضارى والثقافى تختلف ؛ هذا فضلاً عن اختلاف البيئات الطبيعية والظروف الجغرافية ، فلا شك أن ثمة فروقاً بين البشر ؛ لكنها لا تسوغ بناء نظرية تعددية نسبية فى الأخلاق أو فى المعرفة ، كما أنها لا تسوغ أية تفرقة عنصرية ٠

٥ - وقد اختار إيزوتسو المذهب المثالى فى نظرية المعرفة حين أكد أن للعقل دوره الكبير فى تشكيل تصوراتنا لعالم الواقع ، كما نعبر عنها فى مفردات لغتنا ، فالعقل ليس صفحة بيضاء تتلقى سلبياً الانطباعات الحسية من الـخارج ، وإنما هو ينتج صفات وخواص عديدة يضيفها إلى الأشياء ، كما هو الحال فى كلمة weed وتصورها ، وهذا المذهب المثالى فى المعرفة يقترن عادة بالمذهب المطلق فى الأخلاق وليس بالنسبية ؛ أى أن إيزوتسو اختار المذهبين المتناقضين واعتنقهما : النسبية والمثالية ! وذهب إلى الطرف الأقصى فى المثالية حين تابع بعض مذاهب الفلسفة الألمانية فى زعمها بأن العقل : « هو الذى يجعل الشيء يوجد وجوداً واقعياً بالنسبة لنا » أى أن وجود الأشياء ، مشروط بمعرفة الإنسان لها ، فإذا عرفها وُجِدَتْ وإذا لم يعرفها لم توجد ! ولم تلْق هذه المثالية قبولاً واسعاً فى العالم الحديث ، وربما كانت فلسفة كانط Kant هى أقرب مذاهبها إلى القبول ، فهى تقف عند حد القول إن العقل يملك إطـارات « كالمكان والزمان » ويُرتِّب الإحساسات فى داخلها ، وهذه الإطارات ثابتة مطلقة،سابقة على التجربة a priori فالإطارعقلى والمضمون حِسّى ، والإطار ثابت مطلق ، فطرى ؛ والمضمون تجريبى ، بَعْدى ، مكتسب ٠

٦ - ومن المؤسف أيضاً أن إيزوتسو قد انقاد لتأثير الفلسفة الوجودية فى نظرته إلى العالم وعلاقته بالعقل واللغة ، لقد سلَّم تسليماً بأن العالم أصلاً كان كتلةً من العجين الذى لا يثيرسوى الغثيان ، وأن العقل الإنسانى هو الذى

قَسَّمه، وسمَّاه، وصنَّفه، وأضفى عليه المعنى، إن هذه النظرية خاطئة جزئياً وصحيحة جزئياً، فهى تعميم متعسف، فالإنسان لم يخلق شمسًا، ولم يشُق بحراً، ولا أرْسَى جبلاً؛ ولا رفع سماءً، ولا دَحَا أرضاً، وهو لم يزود نفسه بيد أو رجل أو عين أو أُذن، ولم يصنّف الأحياء من حوله إلى زواحف وطيور ودواب؛ لقد وَجَدَ الإنسان العالم مُقَسَّماً بقدرة خالقه، وَوَجَدَه مُرتَّباً أدق ترتيب، خاضعاً لنظام صارم: أيامٌ تتعاقب، وليال تتوالى، وأفلاكٌ تُدور، وحياة تولد، وتنمو، وتمرض، وتموت؛ وكائنات تتكاثر، وتتصارع، وتتواصل، وتتجمع، وتتفرق، وَوَجَدَ الإنسان نفسه مُزوّداً بقدرات عديدة، منها القدرة على تسمية الأشياء بأسماء، ووضْع التصورات لها وتشييد نظم لغوية وفكرية، فكيف يُقال إن العالم كان كتلة من العجين، وإن الإنسان هو الذى قطعها قطعا، وقسمها أقساما، وصنفها أصنافاً؟ إن هذه النظرية كما قلنا صحيحة جزئياً، وخاطئة جزئياً، ولو أن إيزوتسوفحص أقوال الوجوديين فحصاً نقدياً لاكتشف ما فيها من مبالغة زائفة، ووقف عند الحدود الصحيحة لدور العقل فى تشكيل التصورات للأشياء، ودوره فى إنشاء الكلمات واللغات، وحقيقة الشاشة المزعومة التى تصبغ العالم بألوانها.

● الحقيقة أن العالم لم يكن كتلة من العجين حين جاءه الإنسان، لقد كان مقسما، عامراً بالكائنات؛ لكن هذه الحقيقة لا تنفى أن الإنسان صنع فيه أقساما جديدة، من السكين إلى الصاروخ، وشَيَّدَ وصَنَعَ آلاف الأشياء من مادة العالم، ثم سماها أسماء، وصاغ لها تصورات، وما الحضارة الإنسانية إلا نتيجة ومحصلة لجهوده تلك عبر العصور.

ولم تشكل الأسماء، والكلماتُ، واللغاتُ، شاشةً بين العقل والعالم إلا فى بعض النواحى الفنية والأدبية والثقافية، وفيما عدا ذلك لم تكن هناك شاشة عازلة مشوهة بين العلماء وبين الطبيعة؛ وإلاَّ لما استطاعوا معرفة حقيقتها ومعرفة القوانين الحاكمة لظواهرها، ولهذا لا نجد مسوغاً لقول إيزوتسو إن: «كل كلمة فى لغتنا تمثل وجهة نظر نرى العالم من خلالها».

● فهذا، مرة أخرى، هو التعميم المتعسف الخاطئ.

*　*　*

(٣)

الحق والباطل

فى نظرية المستشرق السويسرى

فريثيوف شون

كتب البروفسور السويسرى فريثيوف شون Frithiof Schuon ، أستاذ علم الدين المقارن بحثاً عن النبى محمد ﷺ وشخصيته ومكانته فى الإسلام ، ضمن كتابه « فهم الإسلام » الذى أراد له أن يكون بمثابة مدخل إلى عالم الحقيقة الإسلامية !

ولقد وجدت فيما كتب « شون » حقائق كثيرة تمثل جوانب وضاءة فى حياة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ولمست فى بحثه نبرة موضوعية قلما يجدها المرء فيما يكتب الغربيون عن النبى والإسلام .

لكننى وجدت أيضاً أخطاء كثيرة ! ووراء هذه الأخطاء منهج خاطىء ، ومنطلق خاطىء ! وأرجو أن أوفق إلى وضع يد القارىء على كل ذلك ، وأن نبلغ معاً شيئاً من النفع من وراء بيان الحقائق والأخطاء على السواء !

ومن أجل التزام الموضوعية : سوف أتجنب منهج بتر النصوص على نحو ﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ ﴾ الذى يفضى لا محالة إلى تطويع الحقائق لأهواء الناقدين ، ويقصيهم عن إدراك حقيقة آراء الكاتب ؛ وسوف أفسح المجال لاقتباسات مطولة من كلام « شون » ، بحيث يتمكن القارىء من المشاركة فى النقد والتقويم لحساب نفسه ، بصرف النظر عما أفهمه أو أنتهى إليه !

● **صفات النبى الخلقية عند « شون »** :

ولنبدأ بالعناصر التى يرى الرجل أنها بارزة فى حياة النبى ﷺ :

يقول الأستاذ : « إن المرء حين يألف حياة محمد ألفةً حقيقية كما تصورها المصادر التقليدية تبرز له ثلاثة عناصر يمكننا التعبير عنها مبدئياً بالمصطلحات الآتية :

التقوى ، والجهاد ، والشهامة : ومعنى التقوى هو ، الاتصال القلبى الكامل بالله ، والإحساس بالآخرة ، والإخلاص المطلق لله ، ومن ثم كانت التقوى سمة فى الأولياء ، وفى رسل الله على نحو أبلغ » .

« وفضلاً عن هذا ، لقد كانت فى حياته حروب وغزوات ، وكانت فيها عظمة تفوق عظمة البشر ، لم تتأسس على مبادىء العنف ؛ وكانت فيها زيجات ، ومن خلال هذه الزيجات ولج النبى ، بحكمة ، فى حياة الناس الدنيوية الاجتماعية ، ولا نقول الحياة الأرضية الدنسة » .

ولكن ما التقوى التى هى جانب بارز فى حياة الرسول ؟

التقوى هى : « حالة العبودية بأسمى معانيها : وهى تشمل الفقر التام ، والفناء أمام **الله** ، وهذا المعنى ليس مبتوت الصلة بالنعت « أمى » **الذى يوصف** به النبى ، إن التقوى هى الصلة التى تصلنا **بالله** ؛ وفى الإسلام هذه التقوى - قبل أى شىء آخر - فهم عميق للإله الواحد المتجلى بأقصى ما يسع البشر ؛ لأن الإنسان المكلف يجب أن يدرك هذا الجلاء المباشر ، وهنا لا نجد تفرقة حادة بين « الإيمان »و « المعرفة » .

ثم إن هذا الإدراك هو إدراك للواحد ، وهو إدراك يتخطى حدود فهمنا ذى الطابع الراهن والجانبى ، والذى هو جهل إذا نظرنا إليه فى ضوء المعرفة التامة : ولا يوجد ولى من أولياء **الله** ليس عارفاً **بالله** ، **وهذا هو ما يفسر لنا لماذا كانت للتقوى فى الإسلام** ، ومن باب أولى للورع الذى هو ثمرة لها ، **هذه المسحة من الإخلاص** ، إنها نوع من التقوى يفضى بالتقى ، بحكم ماهيته ، إلى عالم التأمل والعلم » .

ولقد كانت تتجسد فى النبى فضائل الإخلاص والكرم والقوة أيضاً :

« **والقوة** هى التى توطد دين **الله** الحق ، وربما تنقلب إلى قوة قتالية حين تمس الحاجة إلى القتال ؛ القوة توطد دين **الله** الحق فى الروح وفى العالم معاً ، وهنا يتمثل التمييز الذى أقامه الإسلام بين ضربى الجهاد المقدس - الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر ، أو الجهاد الباطنى والجهاد الخارجى .

والكرم : هو الذى يعوض عن الجانب العدوانى فى القوة **فهو إحسان وعفو** ؛ وهاتان الفضيلتان المتكاملتان تبلغان الذروة ، أو تفنيان بمعنى ما ، فى فضيلة ثالثة هى **الإخلاص الذى هو بمثابة انعتاق من العالم ومن « الأنا » ، وفناء أمام الله ، وعلم به واتحاد معه وبه** » .

ويمضى « **شون** » فى بيانه لصفات النبى الخلقية فيقول :

« وإن النعوت التى يوصف بها النبى لآيات على فضائله الروحية التى أهمها : **الفقر** ، « الذى هو صفة للعبد » ، ثم **الكرم** « الذى هو صفة للرسول » ، وأخيراً **الصدق أو الإخلاص** « الذى هو صفة للنبى **الأمى** » . **والفقر تركيز روحى** ، أو هو بالأحرى الناحية السكونية فى التركيز الروحى ،

وهو **قطع الأمل non - expansion**، وتبعاً لهذا هو **التواضع**، بمعنى كظم الغيظ (حسب لفظ الترمذى)، أما الكرم فهو قضاء على الأثرة، والقضاء على الأثرة ينطوى ضمناً على بر الجار بمعنى تجاوز التفرقة الوجدانية بين « الأنا » والآخر، **وأخيراً يأتى الصدق، وهو الصبغة الفكرية للعقل؛ والصدق على المستوى العقلى هو المنطق أو هو التجرد، أو هو فى عبارة موجزة: حب الحق**».

● **الفضائل الإسلامية كما نعرفها:**

وهنا لابد من كلمة لنصحح ما ذهب إليه الأستاذ فى تعريفاته للفضائل الإسلامية.

فالإخلاص فى الإسلام يعنى أن يكون باعث العمل وهدفه واحداً بعينه، **وهو مرضاة الله؛ وهو نقيض الرياء** الذى عده الرسول صلوات الله عليه شركاً أصغر، ووصف الإخلاص بأنه انعتاق من العالم صحيح، لكنه مجازى وغامض، وأما وصفه بأنه فناء أمام الله واتحاد به، فلغة صوفية شعرية لا تفيد علماً، وتنطوى على إشكالات عويصة بسبب اختلاف الصوفية أنفسهم بشأن مفاهيم الفناء والعلم والاتحاد!

وأما التواضع فهو فى الإسلام تقويم موضوعى للنفس وللآخرين، وحب للحق واحتفال به: وعلامات التقويم الموضوعى للنفس وللآخرين هى حب الحق والانصياع لمنطقه، بصرف النظر عن مصدره؛ يضاف إلى ذلك إقبال المسلم بنفس راضية على الأعمال النافعة البسيطة التى يقوم بها عادة صغار العمال أو الخدم؛ وربطه بالفقر أو قطع الأمل لا سند له من القرآن والسنّة.

والصدق - أخيراً - ليس مجرد حب للحق، ولكنه أيضاً: قول الحق، والدفاع عنه، وإذاعته، ومناجزة الباطل ودحضه وحرب أهله؛ وهذا يتطلب تضحيات جساماً ربما تبلغ الشهادة فى كثير من الأحيان!

● **الاقتداء بالنبى .. ماذا يعنى؟**

والمسلمون مطالبون بالاقتداء برسول الله ﷺ، وفى هذا يقول « شون »: « **الاقتداء يتضمن - أولا - القوة**، أى قوة المرء « المسلم » مع نفسه: **ويتضمن، ثانياً، الكرم إزاء الآخرين؛ ويتضمن، ثالثاً، الإخلاص فى**

الله وبالله، وبوسعنا أن نقول أيضاً إن الاقتداء بالنبى هو: الإخلاص من خلال التقوى، وبأعمق معانى هذه الكلمة».

«ويتضمن الاقتداء بالنبى، فضلاً عن هذا:

(أولا) الاعتدال بالنظر إلى العالم والحياة.

(وثانياً) النبل داخل نفوسنا، وداخل وجودنا.

(وثالثاً) الصدق بالله وفى الله».

ثم يضيف بعد ذلك بقليل: «والاقتداء بالنبى يعنى تحقيق التوازن بين ميولنا السوية، أو إن شئت المزيد من الدقة، تحقيق التوازن بين فصائلنا المتكاملة؛ وتبعاً لهذا، وقبل كل شئ، كان هذا الاقتداء فناءً فى الإله الواحد، على أساس هذا التناسق أو التناغم».

ويلحظ القارئ هنا نبرة صوفية واضحة فى عبارات «شون» ونحن ندعها الآن جانبا لأننا سنناقش ميوله ومنطلقاته الصوفية فيما يلى من هذا المقال.

إن نبى الإسلام هو المثل الأعلى للمسلم؛ والاقتداء به عليه السلام فرض؛ والتأسى بخلقه العظيم واجب، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾(١).

وهذا هو السبب فى الحب العظيم الذى يكنه كل مسلم لرسول الله ﷺ.

● **حب النبى يشكل عنصرا أساسيا فى الحياة الروحية الإسلامية:**

وحب النبى ينبثق فى قلوب المسلمين لأنهم يرون فى النبى الأنموذج الأول والمثل الأعلى للفضائل التى تصنع الجانب الإلهى فى الإنسان كما تصنع الجمال والتوازن فى الكون، وهى بمثابة المفاتيح أو المسالك التى تهديهم إلى الإله الواحد الذى يملك النجاة؛ إنهم يحبونه ويقتدون به حتى فى أهون تفاصيل الحياة اليومية، فالنبى، مثل الإسلام ككل وعاء سماوى – إن جاز

(١) الأحزاب: ٢١.

التعبير – أعد لتلقى دفقات عقل المؤمن وإرادته ؛ النبى وعاء سماوى فيه يصبح العناء نفسه راحة تفوق الراحة الطبيعية » .

● « **شون** » **وموقفه من الإلحاد والمادية** :

هذه هى أهم الحقائق التى تضمنها بحث البروفسور **شون** عن النبى ﷺ ، وهى التى أغرتنى بترجمته ودراسته .

ولكن صورة فكر الرجل لن تكتمل فى ذهن القارىء إلا إذا علم أن « **شون** » **واحد من المدافعين عن الدين ضد الإلحاد والمادية** ؛ إنه لم يكشف عن حقيقة الدين الذى هو عليه ، ولكنه وقف من الإلحاد والمادية موقفاً عدائيا حاسماً ، وصوب سهامه البارعة القاتلة إلى مبادئهما الزائفة التى تنكر الروح ووجودها ، وترفض كل معرفة غير حسية ! وهذا يتضمن تكذيب الكتب السماوية ، وإنكار الدين جملة وتفصيلاً !

« ... إن الدين ، وكل صور الحكمة التى تسمو على العقل ، إنما تنتسب إلى نظام غير عقلانى ، نلحظ حضوره فى كل مكان حولنا ، إلا أن يكون قد أعمانا عن ملاحظة ذلك حكم خاطىء مسبق لواحد من علماء الرياضيات ؛ وإن معالجة الوجود بوصفه واقعاً فيزيائياً بحتاً إنما تعنى تزييفه بالنسبة لأنفسنا ، وفى داخل أنفسنا ، ولابد فى النهاية من أن ينسف نسفاً » .

ومعنى هذا الكلام أن **من المحتم الاعتراف بالوحى كضرب من المعرفة المستقلة عن العقل البشرى والتجربة الحسية** ؛ فالإنسان السوى الفطرة يدرك دون عناء أن هذا الوجود الشاسع لا يمكن أن يوجد بمجرد صدفة (كما يدعى الماديون !!) ، وأن خالق هذا الوجود جل شأنه لابد أن يرعاه ويوجهه ، ومن هنا بعث الله عز وجل أنبياءه بالرسالات والكتب التى هى حكمة بالغة تسمو على كل حكمة عقلية .

وأما الزعم بأن العالم أو الوجود مجرد مادة محسوسة وأنه لا وجود لشىء سوى المادة المحسوسة ، فزعم زائف لا سند له من العلم أو العقل، وتضليل يبعد الإنسان عن حقيقة الوجود وعن حقيقة نفسه .

وإذا انساق الإنسان وراء هذه المبادىء المضللة الزائفة « فلن يظل إنساناً » ، والحضارة الإنسانية الحقة هى الحضارة التى تعرف للدين مكانته

وقيمته ؛ وليس ثمة حضارة لها قيمتها دون دين ؛ لأن الدين هو جوهر روح الإنسان ، وإعادة صياغة الإنسان المعاصر تعنى إعادة توثيق روابطه بالله .

إن « شون » يرفض الفلسفة المادية ومواقفها من : الوجود والمعرفة ، والأخلاق ، والحضارة ، ويتبنى وجهة نظر دينية تؤمن بوجود الله ، والروح ، وبصدق المعرفة الدينية ، تؤكد ضرورة تشييد الحضارة الإنسانية على أساس من هذه الحقائق ، ولعل هذا هو ما يفسر موقفه الإيجابى من الإسلام ورسول الإسلام ﷺ .

● **الجوانب السلبية فى دراسة « شون » :**

لقد انصرفت اهتمامات البروفسور الكبير إلى دراسة البوذية ، فضلاً عن المسيحية والإسلام ، بحكم تخصصه فى علم الدين المقارن .

ومن هنا جاءت كل الأخطاء !

فهو يبدو مصمماً وعازماً كل العزم على اكتشاف تماثلات وتشابهات بين : **المسيح** ، (عليه السلام) ، **وبوذا ، ومحمد** ﷺ ؛ وكذلك بين : المسيحية، والبوذية ، والإسلام !

ولكن كيف يتمكن من ذلك ؟

إن اتخاذ وجهات صوفية متطرفة هو السبيل الوحيدة التى تمكنـــه من ذلك ! ومن هنا بدأ الرجل شديد الإعجاب **بابن عربى وجلال الدين الرومى** ، وبالتفسيرات الصوفية للإسلام عامة ، وبمكانة رسول الله وطبيعته .

● **إغفاله المنهج العلمى:**

إن مما يؤسف له بحق أن ينسى الباحث الغربى أوليات **البحث العلمى** ، تلك التى صاغها « رينيه ديكارت » ضمن قواعد منهجه الشهير ، **فيتناول موضوع بحثه وهو عازم على بلوغ نتائج محددة ومعينة** تتفق مع مجموعة من الآراء والاعتقادات التى يؤمن بها سلفاً !

وأخطر الأخطاء التى انساق إليها « شون » نتيجة لإغفال المنهج العلمى هو : تذبذبه وتشككه فى بشرية النبى ﷺ ، وميله الواضح إلى فهم طبيعته على أنها طبيعة إله حل فى إنسان ، كما فهم النصارى طبيعة المسيح !!!

وإليك كلام الرجل نفســه ، حتى لا تظلمــه أو نظلم أنفسنا ، قال : « . . . وسبب ذلك هو أن حياته (النبى ﷺ) الروحية الواقعية - بخلاف المسيح وبوذا - تنسدل عليها حجب بشرية وأرضية خاصة ؛ ومرد ذلك إلى وظيفته كمشرع لهذه الدنيا ، وهكذا كان (النبى) على مثال الأنبياء الساميين العظام : **إبراهيم وموسى وداوود وسليمان أيضاً** » .

فهو هنا يدرك جانباً من الاختلافات بين المسيح ، وبوذا ، ورســول الله ﷺ .

لكنه فى الفقرة التالية يبدى ميله الغلاب إلى تصديق تفسيره الخاطىء بأن **محمداً** إله حل فى إنسان !!!

يقول : « لقد أشرنا فيما سبق إلى طبيعة محمد التجسدية ، وهى الطبيعة التى يمكن الاعتراض على إثباتها بالقول إنه فى نظر الإسلام (وبتعبير آخر يؤدى المعنى نفسه) ، إنه فى اعتقاد **محمد** ذاته ، لم يكن **محمداً** وما كان يمكن أن يكون تجسيداً لإله Avatara ، لكن ليست هذه هى المشكلة فى الحقيقة ، لأن من الجلى أن الإسلام ليس الهندوسية ، وأنه يتنافى مع أية فكرة حلول incarnation .

ونحن نجيب على مثل هذا الاعتراض بمنتهى البساطة مستعملين المصطلح الهندوسى - وهو مصطلح مباشر أكثر من غيره - كما أنه أبعد المصطلحات كفاية ، نجيب قائلين بأن مكوناً إلهياً معينا اتخذ - فى ظروف دورية خاصة - شكلاً أرضياً معيناً ، وهذا الشكل يتفق كلية مع ما شهد به **رسول الله** بخصوص طبيعته الخاصة ؛ فهو قد قال : « **من رآنى فقد رأى الله** » ؛ (الحق) ، و « أنا هو ، وهو أنا . . » ؛ و « كنت نبياً وآدم بين الطين والماء » .

ويقول : « وعلى أية حال ، إذا كانت نسبة الألوهية إلى شخصية تاريخية أمر مناقض للإسلام ، فذلك لأن فكرة الإسلام تركز على « المطلق » من حيث هو كذلك » .

وفى مكان آخر يقول إن الصلاة على النبى : « تشير إلى الإلهام النبوى ، وإلى خاصية التفرد النسبى ، والمركزية ، فى ذلك الإنسان الذى تجسد فيه الله Avatara » .

وفى نهاية البحث يقرر أن نبى الله محمداً : « لا يجسد الله مطلقاً ، ولا يتجسد فيه الله مطلقاً » .

وفى آخر سطر من بحثه يقول إن طبيعة النبى نصفها إلهى أو سماوى ونصفها الآخر أرضى !

فالرجل يدرك بوضوح أن عقيدة « حلول الله فى إنسان » منافية ومناقضة لمبادىء الإسلام ، ومع ذلك يسوغ لنفسه الزعم بأن السنَّة الشريفة تنص على أن مكوناً إلهياً حل فى إنسان ، أو اتخذ شكلاً أرضياً - حسب تعبيره - وأن ذلك المكون الإلهى حل فى أنبياء الله الواحد بعد الآخر ، وليس فى أحدهم دون الآخرين !

والسنَّة الشريفة بريئة كل البراءة من مذاهب الحلول !

● **تحريفه للحديث : « من رآنى فقد رأى الحق » :**

ولابد أن نقف هنا وقفة طويلة لنحسم هذا الضلال المبين !

فبالنسبة للحديث الأول : « **من رآنى فقد رأى الله** » ، **نلاحظ أن « شون » حرَّف النص لكى يساير هواه !** إن النص كما جاء فى البخارى «**هو من رآنى فقد رأى الحق**»[1] . فهو قد استعمل كلمة «God»(= الله)فى صلب النص،وهذا هو التحريف ثم وضع كلمة «الحق» ونظيرتها الإنجليزية « The truth » ، مستعملاً الحرف الكبير فى أولها لكى يبين أنه يريد بها اسم علم ، أى أحد أسماء الله الحسنى .

لقد فسر « شون » الحديث كما يحلو له ، ثم ترجم هذا التفسير !

وليس ثمة من علماء السنَّة من فسر كلمة « الحق » فى هذا الحديث الشريف بمعنى « الله » ، أو على أنها دالة على أحد أسماء الله ، كما أراد الكاتب السويسرى المرموق !

أجل ، إن الحق من أسماء الله الحسنى ؛ لكنه فى هذا الحديث لم يستعمل بهذا المعنى على الإطلاق ، ولقد تجد فى كتب السنة تفسيرات وتأويلات كثيرة لهذا الحديث الشريف ، لكنك لن تجد فيها أى تفسير أو تأويل يشابه تحريف الأستاذ « **شون** » !

ولو أراد الأستاذ وجه الحق لأخذ ببقية الحديث كما وردت فى الرواية

(١) انظر : فتح البارى ، باب ١٠ - ص ١٢ / ٣٨٣ - طبعة المكتبة السلفية .

الأخرى عن أبى سعيد ﷺ ! ففى هذه الرواية جاء قوله عليه السلام : « **من رآنى فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتكونني** » .

وجاء فى شرحه أن من رآه ﷺ فى النوم رأى حقيقته ، كمن رآه فى اليقظة سواء ، وقال آخرون إن من رآه رآه على صورته التى كان عليها ؛ ويلزم من هذا أن من رآه على غير صفته أن تكون رؤياه من الأضغاث ، وقيل إن معناه أن **رؤية النبى** ﷺ « **فى كل حالة ليست باطلة ، ولا أضغاثاً ، بل هى حق فى نفسها** ؛ ولو رؤى على غير صورته تلك فتصور تلك الصورة ليس من الشيطان ، بل هو من قبل **الله** »[1] .

هذه هى تفسيرات علماء المسلمين التى تغافل عنها « **شون** » !

فهل علم الدين المقارن يجوز ذلك ؟ هل يجوز « العلم ! » إغفال علماء الدين من أجل تبنى نص محرف ، أو تحريف الترجمة ، ثم بناء نظرية كاملة على أساس من هذا التحريف ؟

وإذا كان الحديث الأول محرفاً ، فإن الثانى محض افتراء ، ولا أصل له فى معجم ألفاظ السنَّة ، ولا فى أى واحد من الصحاح أو المسانيد ، بل ولا فى كتب « الموضوعات » ، أى الأقوال المنسوبة زوراً إلى رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام !

ولعل هذا هو السبب فى أن « شون » أورد الحديث دون إثبات مصدره ، كما فعل بالنسبة للحديثين الآخرين أيضاً ! وواضح أن هذا ليس من قبيل التقصير أو الإهمال أو الجهل بأصول البحث العلمى ، **وإنما هو أمر مقصود ، لهدف مرصود !**

وأما الحديث الثالث : « **كنت نبياً وآدم بين الطين والماء** » فقد قيل فيه الكثير !

قال السخاوى : « لم أقف عليه بهذا اللفظ ، فضلاً عن زيادة : وكنت نبياً ولا آدم ولا ماء ولا طين » .

وقال الزركشى : « **لا أصل له بهذا اللفظ** » .

وقال ابن تيمية : « لا أصل له ، لا من نقل ولا من عقل ! فإن أحداً من المحدثين لم يذكره ، ومعناه باطل ، فإن آدم عليه السلام لم يكن بين الماء

---

(١) المصدر نفسه : ٣٨٤ .

والطين قط ، فإن الطين ماء وتراب ، وإنما كان بين الروح والجسد ، **ثم هؤلاء الضلال** يتوهمون أن النبى ﷺ كان حينئذ موجوداً ، وأن ذاته **خلقت قبل** الذوات ، ويستشهدون على ذلك بأحاديث مفتراة ، مثل حديث أنه كان نوراً حول العرش ، فقال : « **يا جبريل ! أنا كنت ذلك النور ..** »[1] .

فما نقول فى هذا أيها القارىء العزيز ؟ أليس هذا بعينه هو الضـــلال المبين ؟

لقد أراد البروفسور الكبير أن يصور نبى الإسلام فى صورة مماثلة لصورة المسيح وبوذا !! ولهذا كان لابد من التحريف ، والتزوير ، وتبنى الأحاديث الزائفة الموضوعة ، والاعتداد بها ، مع إغفال الحقائق الثابتة التى تتنافى معها !

● حقيقة النبى والنبوة :

إن من المؤكد أن الكاتب الكبير قد قرأ القرآن الكريم ، وعرف حقيقة النبى والنبوة كما حددتها آياته الواضحة ، لكن أغلب الظن أنها لم ترق له ، لأنها تناقض اعتقاده السابق الذى كان يتحتم أن يتجرد منه ولابد أن نتساءل ، بالمناسبة ، ما حقيقة النبى والنبوة فى القرآن الكريم ؟

يقـول عز وجــل : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[3] .

ويقول تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[4] .

ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[5] .

---

(١) أورد السيوطى هذا الحديث فى ذيل الموضوعات صفحة ٢٠٣ ، وأقره ابن تيمية » ، انظر : الأسرار المرفوعة ؛ ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) آل عمران: ١٤٤ (٣) الأحزاب: ٤٠ (٤) الفتح: ٢٩ (٥) الأحزاب: ٤٥، ٤٦

فمحمد ﷺ : رسول الله ، وخاتم النبيين ، وشاهد ومبشر ونذير ، وداع إلى الله بإذنه ، وسراج منير .

فهل فى هذه الصفات ما يستدعى حلول الله فى النبى ؟! هل فيها ما يحتم أن يكون النبى إلهاً أو رباً تجسد فى إنسان ؟!

القرآن الكريم يجيبنا في وضوح وحسم ! قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] .

هذه هى باقتضاب حقيقة النبى والنبوة كما جاءت فى كتاب الله ، المصدر الأول لكل حقائق الإسلام .

وهذا هو موقف القرآن الكريم من أكذوبة الحلول !

وكان ينبغى أن يتخذه « **شون** » وأن يقف عند حدوده ؛ فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للحقائق الدينية الإسلامية ؛ وكان ينبغى إغفال أى تفسير يناقض آيات القرآن البينات الحاسمات .

لم يفعل الرجل ما ينبغى ، وراح يجرى وراء التفسيرات الصوفية المتطرفة !

فهل من تفسير لهذا المنهج العجيب غير الاستسلام للأحكام المسبقة ؟!

إن الغربيين يحتمون الرجوع إلى **أرسطو** على كل من يريد أن يكتب عنه ، والرجوع إلى « **كانت** » على كل من أراد الحكم على فلسفته ، والاستشهاد بأقوال **برتراند رسل** على كل من تصدى لتقويم فكره ؛ فكيف يجوز لمن يكتب عن نبى الإسلام أن يغفل كتاب الإسلام الأول وسنّة رسوله الصحيحة ؟!

لقد أجاز **شون** لنفسه ذلك ! ولا تفسير لهذا الخطأ المنهجى الفظيع إلا

---

(١) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ .

التسليم بأنه خضع لسطوة عقائده السابقة، وتناول بحثه بقصد الوصول إلى نتائج محددة سلفاً!

والتغافل عن الحقائق القرآنية من أجل الجرى وراء التفسيرات الصوفية المتطرفة إنما هو نتيجة حتمية لذلك الخطأ المنهجي الشنيع!

● أمثلة لتفسيراته الصوفية المتطرفة:

وإليك أمثلة قليلة لتلك التفسيرات الصوفية المتطرفة كي تتأكد من صحة ما ذهبنا إليه:

يقول الرجل: «والنبى، منظوراً إليه بالمعنى الباطن «أى الصوفى» والشامل للكلمة، هو – على هذا – الكل الذى نحن شذرة منه؛ ولكن هذا الكل يتجلى فينا أيضا، وعلى نحو مباشر إنه مركز الروح، أى عين القلب، وكرسى القوة التى لم تخلق، القوة السماوية أو الإلهية التى يعتبر الأنا بالنسبة لها المحيط الكونى الصغير، وهكذا نقع نحن على المحيط بالنسبة للروح، ونكون جزءا بالنسبة للخلق».

ويفسر «شون» قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾(١)، تفسيراً صوفياً، فيقول إن الله فى هذه الآية هو المبدأ غير المتجلى، والملائكة هم الكائنات المتجلية، ولكنها فائقة للطبيعة، والجن والإنس هم الكائنات المتجلية، وهم الذين يحتاجون إلى هداية النبى لكى يكونوا من الذين آمنوا، والروح الكونية هى قلب هذا التجلى! وعلى هذا: «فالمسلم الذى يصلى على النبى يصلى ضمناً على العالم وعلى الروح الكلية، وعلى الكون والعقل، وعلى الكل والقلب معاً، بحيث ترتد الصلاة – وقد ضوعفت عشر مرات – من كل فرد من تجليات المبدأ، ترتد على المسلم الذى صلى على النبى مستحضراً قلبه».

ثم يضيف: «إن التجلى الذى تعبر عنه كلمة صلاة – حسب رأى الشيخ أحمد العلوى – يشبه البرق، فهو من نوع لحظى. وينطوى – إلى

(١) الأحزاب: ٥٦.

حد ما – على فناء الوعاء البشرى المتلقى له ، بينما التجلى الذى يعبر عنه بكلمة « سلَّم »ينشر الحضور الإلهى فى أعطاف الفرد نفسه ؛ ويقول الشيخ إن هذا هو السبب فى أن الفقير (أى الصوفى) ينبغى دائماً أن ينشد السلام الذى يستحق « السلام » كتحية من الله ، وذلك حتى لا يختفى الوحى أو الحدس كومضات البرق الخاطف ، ومن أجل أن يثبت فى روحه » .

ويقول أيضاً : « إن الصوفى الذى يقتدى بالنبى كمثل أعلى له لا ينبغى أن يكون الله !! (هكذا !!!) ولا أن يكون شيئاً آخر غير الله » !!!

يقول هذا ومثله وأكثر منه دون أدنى سند من القرآن الكريم أو السنَّة الصحيحة !

ولقد وددت أن أنقل أمثلة أخرى ؛ لكنى أتوقف لإحساسى بأن القارىء المسلم ، السليم الحس ، والسديد الإدراك ، لابد أن يكون قد بدأ يضيق ذرعاً بهذه التعبيرات الغامضة الملتوية المضللة التى لا تفيد شيئاً !

وربما ظن البعض أنه كان على أن أشرح هذا الكلام الغامض ، والحق أن أقوال الصوفية لا يمكن أن تشرح !

والسبب معروف وواضح ، وهو أنها لم تكتب لتفهم أصلاً !! هذا هو ما يقرره الصوفية أنفسهم ، باعتبارهم أهل ذوق وتذوق لا أهل فهم ومنطق !

● **عقائد « الحلول » ضد التوحيد :**

ولعل من الواجب أن نضيف حقيقة أخرى ، هى أن « **شون** » شديد الإعجاب بغلاة الصوفية ، وبابن عربى خاصة ، بوصفه صاحب عقيدة حلول ، ولأنه كان يؤمن بصحة جميع الأديان بما فى ذلك الوثنية !

بهذا نعرف مدى سطوة النزعة الصوفية المتطرفة على الأستاذ السويسرى الكبير !

تلك السطوة التى أناخ لها « **شون** » قلبه وعقله ، فإنها هى التى وافقت أهواءه ، وكانت سبيله إلى بلوغ مأربه !

لكن الحقيقة تبقى شامخة ووطيدة !

الحقيقة التى تؤكد أن كل عقائد « الحلول » تناقض الإسلام ومبادئه وعقائده ، وكل من يؤمن بشىء منها فالإسلام برىء منه ، باعتبار « الحلول » ضد التوحيد الإسلامى المطلق ومكانة نبى الإسلام هى تلك التى حددها

القرآن ، لا غلاة الصوفية ، وعلى من يبتغى الحقيقة من الغرب أو الشرق أن يصغى إلى إملاء القرآن ، وصحيح سنّة رسول الإسلام .

وأما هواة الباطل فليس أمامهم إلا التحريف ، والافتراء ، والأحاديث الزائفة .

وإننى لأشعر بأن « **شون** » لم يكن يريد الإساءة إلى رسول الإسلام ، ولا هو أراد الحط من قدر ديننا العظيم ... ولعل هدفه كله لا يعدو سبقاً علمياً أو كشفاً مثيراً فى مجال علم الدين المقارن !!

ومع ذلك فالنتيجة هى هى ... تحريف، وتزييف ، وضلال بعيد ... !

ومنهج خاطىء ، ومنطلق خاطىء ، ونتائج أبعد خطأ ... !!

* * *

٤ - دمـوع التماسيح

هى دموع أعداء الإسلام، على أعداء الإسلام!

دموع المستشرقين على النضر بن الحرث وعقبة بن أبى معيط!

ولا تعجب من بُعد الشقة فى المكانِ والزمان، فإن عداءهم للإسلام يجمع شتاتهم ويعطف قلوبهم بعضها على بعض!

النضر وعقبة رجلان من قريش، أو قل شيطانان من شياطينها، اقترفا فى حق النبى والمسلمين سلسلة متصلة من الجرائم والاعتداءات، ثم مكن الله لنبيه منهما فأصدر عليهما حكمه العادل بالإعدام.

كان ذلك فى أثناء العودة من غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية للهجرة!

واليوم يجيئ المستشرقون الأوربيون من مسيحيين ويهود ليذرفوا الدمع تهتانا على الرجلين القرشيين المشركين، كأنهما بطلان من أبطال الحرية أو شهيدان من شهداء العدالة!

وما كان النضر بطلا، ولا كان عقبة شهيدا!!

ولكن العداء الصليبى يبحث لنفسه عن متنفس، كالبركان الحبيس! وقد توهم بعض المستشرقين أن من الممكن استعمال إعدام النضر وعقبة فوهة يقذفون من خلالها شيئا من حقدهم الفوار ضد الإسلام ورسول الإسلام!

وقد شجعتهم غفلة المسلمين على تصدير ذلك القذر الملتهب إلى بلاد الإسلام بوصفه بضاعة علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!

● **يقول الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله:**

« يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء، ومقتل النضر وعقبة، ويتساءلون: أليس فى ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم ظمأ لولاه لما قتل الرجلان، ولكان أكرم للمسلمين – بعد أن كسبوا الموقعة – أن يردوا الأسرى، وأن يكتفوا بالفئ الذى غنموا؟ »

ومن الجلى أن هذا التباكى الكاذب إن هو إلا محاولة خبيثة لتشويه الحقائق وإظهار الإسلام زورا بأنه دين لا يعرف العدل أو الرحمة أو القيمة الحقيقية لدم الإنسان ! وتلك اتهامات خطيرة إلى أبعد الحدود !

ولقد رد الدكتور هيكل ، فذكر فظائع الحضارة الغربية المسيحية التى يبشر لها أولئك الدجالون ، كما ذكر بشاعة المجازر التى اقترفها الكاثوليك ضد البروتستانت فى فرنسا ، ثم أشار أخيرا إلى أن النضر وعقبة كانا : « قساة على المسلمين مدى الأعوام الثلاثة عشر التى احتمل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكة » .

وهذا الرد ليس كافيا ولا حاسما !

فالفظائع التى اقترفتها أوربا المسيحية ضد العرب وضد جميع أجناس الأرض - على الرغم من بشاعتها وجسامتها - لا تصلح دفاعا عن موقف النبى من النضر وعقبة .

والإشارة إلى قسوة النضر وعقبة مقتضبة وغامضة ولا يمكن أن تكشف للقارىء عن حقيقة الجرائم التى اقترفها الرجلان ضد نبى الإسلام ﷺ .

فما الحيثيات الكاملة لحكم النبى بإعدام النضر وعقبة دون أسرى بدر جميعا ؟

أما النضر بن الحرث (أو الحارث كما يرسم فى بعض المصادر) فإنه كان : « من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة ، وكان قد قدم « الحيرة » وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث « رستم » ، و « اسفنديار » ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ! فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ! ثم يحدثهم عن ملوك فارس و « رستم » و « اسفنديار » ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟ .

وتمادى النضر فى جسارته على الحق حتى قال :

« سأنزل مثل ما أنزل الله »!!

وتزعم النضر مشركى قريش فى تكذيب النبى ، وأخذ يقنعهم دون كلل

بأن القرآن الذى جاء به محمد ليس سوى أساطير الأولين: « اكتتبها (محمد) كما أكتتبها ! » .

ونزلت فى النضر أكثر من آية قرآنية ، قال تعالى فيه : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[1] وقال تعالى فيه أيضا : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2].

ويصف ابن هشام واحدا من تلك المواقف العدائية التى التزمها النضر إزاء النبى ﷺ ودعوته ، فيقول إن النبى جلس يوما فى المسجد إلى جماعة من وجوه قريش ، يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك ، فبرز له النضر بن الحرث يعارضه دفاعا عن الأصنام ! وأفحمه النبى عليه السلام ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُون اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ* لَو كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾[3] وأدرك الحضور تهافت النضر ، فقال الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحرث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد ، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . » .

ومن جهاد النضر المحموم ضد الدعوة وصاحبها سفره إلى يثرب ، مع رفيقه العتيد عقبة بن أبى معيط ، بغية الاستعانة باليهود ، بعد أن تهافتت افتراءاته التى زخرفها بقصص رستم واسفنديار ولم تُجْد فتيلا أمام الفَجْر الأبلج الذى حمله الوحى الإلهى إلى محمد وإلى الإنسان فى كل مكان .

وعندما تأزمت الأمور بين قريش المعتدية الباغية والمسلمين المعتدى عليهم ، بسبب اعتراض سرية عبد الله بن جحش لقافلة ابن الحضرمى ، كان النضر من أشد المحرضين لقريش على الخروج إلى حرب النبى ! وعندما خرجت إلى بدر كان النضر على رأس القوم يوم المعركة !

---

(١) الفرقان : ٥ ، ٦ . (٢) الجاثية : ٧ - ٨ .
(٣) الأنبياء : ٩٨ - ١٠٠ .

كان النضر إذاً زعيما لحركة التكذيب والافتراء التى لجات إليها قريش، وكان أبعد القوم تطرفا فى ذلك وأشدهم جسارة على النبى وعلى الله عز وجل! وسخَّر النضر خبرته بتاريخ الفرس وأساطيرهم للتشكيك فى صدق النبى عليه السلام وإيهام الناس بأنه يكتتب القرآن أو يستمليه!

وكان النضر « مجرم حرب » بالمعنى الكامل لهذه الكلمة! فلم يكن النضر يوم بدر مجرد مقاتل انساق مع قومه بباعث العصبية أو خشية السُّبَّةَ، ولكنه كان محرضا أساسيا وقائدا متحمسا ومقاتلا مغيظا لا يشفيه غير استئصال المسلمين بالكلية والقفول إلى مكة برأس محمد!

ماذا يستحق هذا المجرم العريق إذا حوكم أمام أعدل محكمة فى التاريخ؟

– الإعدام!

هذا هو الحكم الذى لابد أن يصدره أى قاض منصف! ولا يمكن، مهما فتشنا أن نجد له مسوغا يخفف هذا العقاب، وأشد الأخلاقيات تمسكا بأهداب العدل والفضيلة لابد أن تدين النضر، ولابد أن تدين كل من يلتمس له عذرا أيضا!

فالنضر لم يكن منقادا لغيره، ولكنه هو الذى كان يقود غيره! وهو لم يكن مستكرها ، ولكنه كان مكْرِها للآخرين! ولم يكن موقفه العدائى ضد الإسلام هو الأول من نوعه، ولكنه كان رأس الحربة فى العديد من مواقف العداء ضد النبى والإسلام!

فميزان العدل لم ينحرف قيد أنملة فى الحكم عليه بالإعدام دون الآخرين من أسرى بدر!

إن العدل فى الإسلام يعنى أن يتحمل المرء تبعة فعله ولا يتحمل تبعة فعل غيره: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾(١)، والرجل لم يُعدم انتقاما من عشيرته، أو ترويعاً لقومه، ولكنه أعدم جزاء وفاقاً لما قدمت يداه!

ولم يكن النضر جديراً بالفوز بعفو رسول الله ﷺ!

فنيل العفو فى الإسلام مشروط: بالخلو من السابقة وبيسر الضرر الناتج

---

(١) النجم: ٣٩.

عن الجريمة ، وبالأمل فى إصلاح المجرم ، وجرائم النضر ضد الدعوة كانت سلسلة متلاحقة خطيرة النتائج جسيمة الأضرار ، كما أن العفو عن النضر لم يكن يرجى منه أن يفضى إلى إصلاحه بحال ، وهو على ما علمنا من إصرار على الكفر واستمساك بالباطل وحنق على الرسول والإسلام .

وقصة عقبة بن أبى معيط أدهى وأمر !

قال رسول الله ﷺ : « كنت بين شر جارين أبى لهب ، وعقبة بن أبى معيط ،أن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى » !!

وكان النبى عليه السلام يكثر مجالسة عقبة : ﴿ فَقَدِمَ عقبة يوما من سفر ، فصنع طعاما ، ودعا الناس من أشراف قريش ودعا النبى ﷺ : فلما قَرَّبَ إليهم الطعام أبى رسول الله ﷺ أن يأكل فقال : « ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إلَه إلا الله » وقال عقبة : أشهد أن لا إلَه إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فأكل ﷺ من طعامه ، وانصرف الناس ، وكان عقبة صديقا لأُبى بن خلف ، فأخبر الناس أُبَيًّا بمقالة عقبة فأتى إليه وقال : يا عقبة : صَبَوْتَ ؟ قال : والله ما صبوت ! ولكن دخل منزلى رجل شريف فَأَبَى أن يأكل طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم ، فشهدت له فطعم ، والشهادة ليست فى نفسى ! فقال له أُبى : وجهى ووجهك حرام إنْ لقيت محمدا فلم تطأه وتبزق فى وجهه وتلطم عينه ! فقال له عقبة : لك ذلك ! ثم أن عقبة لقى النبى ﷺ ففعل به ذلك ! قال الضحاك : لما بزق عقبة لم تصل البزقة إلى وجه رسول الله ﷺ ، بل وصلت إلى وجهه هو ، كشهاب نار ، فاحترق مكانها ، وكان أثر الحرق فى وجهه إلى الموت » .

ومجمل القصة إذاً أن النبى عليه السلام حرص أشد الحرص على هداية عقبة ، فالتمس ذلك الأسلوب الودود لحمله على الخروج من أسر الشرك ، فانصاع عقبة وأسلم ، ثم ارتد عن الإسلام إرضاء لأبى بن خلف ، وأقدم على تلك الفعلة المنكرة إمعاناً فى إرضائه ، وكان أحرى بعقبة أن يقدر صنيع

رسول الله، وكان بوسعه أن يكتفي بالارتداد عن الإسلام، دون التردى فى ذلك الاعتداء المشين على الرجل الشريف حسب وصف عقبة، لكن بواعث الشر فى نفسه، واستهانته بالحق وبمكانة النبى ﷺ كانت من القوة بحيث أخفق تماما فى الوقوف عند حد الاعتدال فى عدائه لرسول الله.

ولو أن عقبة ذهب إلى النبى، فاستل سيفه، وطلب مبارزته – مثلا – لقلنا عدو شريف، أو فارس ضال! لكنه اختار لنفسه ذلك الأسلوب الهابط الذى رسمه له عدو الله أبى بن خلف!

وفضلا عن هذا فإن عقبة شأنه فى ذلك شأن رفيقه العتيد النضر بن الحرث، كان محرضا رئيسيا لمشركى مكة يوم بدر.

فعندما علمت قريش بخروج المسلمين لاعتراض قافلتهم العائدة من الشام، كان عقبة من أشد زعماء قريش اندفاعا إلى حرب المسلمين!

يذكر ابن هشام أن أمية بن خلف كان قد أجمع القعود لسنّه وثقله. لكن عقبة أتاه فى المسجد وهو بين قومه فوضع أمامه مِجْمَرَة وقال له: يا أبا على! استجمر فإنما أنت من النساء!! وبهذه الطريقة الساخرة العنيفة حمل عقبةُ أمية وغيره أيضا، على الخروج على كره منهم.

فعقبة قد قاد حملة مسعورة ضد كل من سولت له نفسه الركون إلى السلم، وهذا هو على التدقيق ما يسمى اليوم «جريمة إثارة الحرب»، وفاعلها هو مجرم الحرب!

ولعلنا نلقى مزيدا من الضوء على جرائم عقبة بذكر الحوار المقتضب الذى دار بينه وبين رسول الله ﷺ حين جاءت لحظة تنفيذ الحكم فيه.

قال عقبة مستعطفا: فمن للصبية يا محمد؟

قال عليه السلام: «النار»!

هذا الجواب الحاسم العنيف من أحلم الحلماء عليه الصلاة والسلام، يكشف بوضوح عن وجود حيثيات أخرى، أعنى جرائم أخرى، لم تذكرها المصادر التاريخية، فضلا عما ذكر منها!

ويقول بعض الرواة أن النبى عليه السلام لما أمر بقتل عقبة قال : أتقتلنى يا محمد من بين قريش ؟ قال عليه السلام : « نعم » ! ثم قال الرسول لأصحابه : « أتدرون ما صنع بى هـــذا ؟ جاءنى وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينى ســـتندان من رأسى ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى » ، ومن الجلى أن هذا العمل محاولة قتل لم يكتب لها أن تنجح !

هكذا ترى كيف كان عقبة يستهين بالرسول عليه السلام ويكيل له الإهانات المتوالية ، ويقترف عديد الجرائم والاعتداءات الجسيمة ، لا لشىء سوى دعوته الناس نبذ الأوثان وعبادة الله وحده !

ولا نعيد ما سبق أن قلناه عن العدل والعفو ، فإن عقبة - كالنضر تماما - لم ينل إلا ما يستحقه من العقاب ، ولم يكن بحال جديرا بعفو النبى كغيره من أسرى بدر الآخرين .

ولكن ينبغى أن نقول كلمة عن الرحمة التى أرادها المستشرقون المتباكون على عقبة !

إن الرحمة فى الإسلام فضيلة خلقية رفيعة ، وقد ذُكر لفظ « رحم » ومشتقاته ثلاثمائة مرة فى القرآن الكريم ، والإسلام يدعو إلى الرحمة بالحيوان والإنسان على السواء ولا يوجد دين آخر يضاهيه فى رعايته وحثه على هذه الفضيلة الخلقية الباهرة .

غير أن الرحمة فى الإسلام ليست للمجرمين قساة القلوب ، الرحمة فى الإسلام للرحماء دون غيرهم ! قال ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحـماء » ، وقال أيضا : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » .

وقد كان عقبة قاسيا القسوة كلها ، شديداً الشدة كلها على جاره الرحيم ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فهو لا يستحق الرحمة طبقا للمعايير الخلقية الإسلامية ، ولا طبقا لأية معايير خلقية أخرى !

لكن بقية الأسرى رُدوا على أهليهم سالمين ! بعضهم دفع الفداء فأطلق سراحه ، والبعض الآخر نال العفو دون فداء كأبى العاص بن الربيع ،

والمطلب بن حنطب ، وصيفى بن أبى رفاعة ، وأبى عزة عمر بن عبد الله .

ولو كان عقبة زعيما ، لا مجرما ، لرده النبى إلى أهله سالما بعد دفع الفداء ، كما فعل بالنسبة لسهيل بن عمرو ، ذلك الذى أراد عمر بن الخطاب ﷺ أن ينزع ثنيتيه فرفض النبى ﷺ وقال : « لا أمثل به فيمثل الله بى ولو كنت نبيا » .

هذه هى حيثيات الحكم النبوى العادل بإعدام عقبة بن أبى معيط ، وتلك حيثيات الحكم العادل بإعدام النضر بن الحرث - الحيثيات التى يعمد المستشرقون إلى تناسيها كى يبدو الحكم ظالما مجحفا .

وأحسب أن هذه الحقائق كافية تماما لترسخ إيماننا بعدل نبينا عليه الصلاة والسلام ونفى كل الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام من الصليبيين الجدد ، وفى كل سطر من تراثنا الإسلامى تواجهنا الحقيقة الناصعة المشرقة والشهادة البينة العادلة بأن نبينا قد وضع دائما معانى العدل والرحمة موضع الاعتبار والتقدير ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

* * *

(٥)
المستشرق الفرنسى
ماسينيون
ومفهومه العجيب للحديقة الإسلامية
والنصرانية واليهودية

● ماسينيون : يتخذ من التشبيه الرمزى للحديقة مدخلاً إلى الحط من قدر الإسلام وإعلاء شأن الحضارة الأوربية المتحررة ·

● لقد بدأ ماسينيون عاريًا من الأسانيد العلمية وأخذ يوظف كفايته الأدبية لخدمة الاستعمار الفرنسى والصليبية ·

● هل الحرية فى نظر ماسينيون هى وقوع أوربا ····· فى قبضة الخمر والمخدرات واللواط والإيدز ·· والقلق والانتحار ؟

● لو أن ماسينيون التزم المنهج العلمى الموضوعى وابتعد عن تفسيراته الرمزية ·· لوجد الحقيقة بارزة أمام ناظريه !

● هل يمكن أن نصنف الحدائق والبساتين تبعاً للأديان .. فنقول : هذه حديقة إسلامية ، وتلك حديقة يهودية أو مسيحية أو بوذية ؟

وهل بالوسع أن نفسر شكل الحدائق تفسيراً رمزياً يكشف عن طبائع الأديان وتوجيهاتها الفكرية والثقافية ؟!

هذا هو السؤال الذى يحملنا المستشرق الفرنسى (ماسينيون) على طرحه ، حين نطلع على رأيه فى الحديقة فى الحضارة الإسلامية ، ومقارنتها بالحديقة فى الحضارة الأوربية ، وفى تفسيره الرمزى للحديقة الإسلامية (!!) والحديقة الأوربية !!

● ومجمل وصف « ماسينيون » للحديقة فى الحضارة الإسلامية يستند إلى وجود الأسوار التى تحوط بها .. وهو يرتب على ذلك النتائج فيقول : إن الأسوار تبنى لكى تحجب الرؤية ، وتمنع النظر ، فلا يُرى مَن فى الحديقة مِن خارجها .. لأن السور يعزل الخارج عن الداخل وهذا الوضع « يرمز » فى نظره إلى نزعة انعزالية انغلاقية لدى المسلمين .. فى حين أن الحديقة الأوربية المفتوحة « ترمز » إلى النظرة الأوربية المتحررة الانطلاقية !

● وهكذا يتخذ « ماسينيون » من الحديقة مدخلاً إلى الحط من قدر الإسلام وحضارته الانعزالية غير المتحررة (!!) وإلى الإعلاء من شأن الحضارة الأوربية المتحررة والمنطلقة !! والهدف النهائى لهذا الكلام ولمعظم الدراسات الاستشراقية هو على التحديد : تنفير المسلمين وغير المسلمين ، من الإسلام ، وتزيين الحضارة الأوربية وفكرها وثقافتها للناس على أمل أن ينبذ المسلمون دينهم ، أو يتحللوا منه ، ويعتنقوا المذاهب والفلسفات الأوربية ، ويصيروا تابعين لأوربا ، مسايرين لها .. وفى الوقت نفسه يتضاعف نفور الأوربيين من الإسلام ... بحيث لا يفكرون فى دراسته ، ناهيك عن الدخول فيه واعتناقه !!

● وهذا هو المنهج الاستشراقى السائد كما وصفه الإمام المودودى رحمه الله ، وهو منهج غير علمى ، وغير موضوعى ، وإن أُلبس مسوح العلم والموضوعية !! وفى السطور التالية نثبت صدق هذه الحقيقة من خلال دراستنا لهذه الجزئية - أعنى الحديقة الإسلامية !!

●● وأول ما نثبته هنا أنه لا يوجد شيء يمكن أن نسميه بحق : الحديقة الإسلامية ، أو الحديقة اليهودية ، أو الحديقة المسيحية !! فليس ثمة صلة بين الدين وبين الحدائق التى ينشئها المؤمنون به . . وإنما الصلات الحقيقية التى تحدد شكل الحديقة ، وبناء الأسوار أو عدم بنائها هى تضاريس الإقليم ، ومناخه ، وتربته ، ومحاصيله ، ولهذا كانت الحدائق فى مصر ، غيرها فى تركيا ، غيرها فى الجزيرة العربية وهناك فضلا عن ذلك حدائق عامة للنزهة ، وحدائق خاصة تحوط بالبيوت والقصور ، وحدائق نخيل وأعناب وثمار أخرى مختلفة . . وشعوب العالم كله تبنى الأسوار حول الحدائق بحسب الحاجة إلى الحماية والأمن ، أو لصد الحيوانات والصبيان أو لصد الرمال . . ولا يختلف المسلمون فى هذا عن اليهود والنصارى والبوذيين . . لأن بناء الأسوار ليس من الدين أو الثقافة التى تميز أمة من أخرى ، شأنه شأن نظام الرى ، وآلات الحرث ، ومواد التسميد وطرق الحصاد والتخزين !! ومن البديهى تبعاً لهذا أن المسيحى إذا اشترى حديقة من المسلم وكان حولها سور فإنه لا يبادر إلى هدم السور ، بوصفه يتعارض مع مسيحيته ؟ والمسلم إذا اشترى من اليهودى حديقة بغير أسوار فإنه قد يبنى حولها سوراً وقد لا يبنى . . . تبعاً لحاجات الحديقة ذاتها . . لا إعمالاً لتعليمات قرآنية أو حديثية !! .

● وليس بوسع أحد أن ينسب إلى الإسلام أو إلى غيره من الأديان والملل ، توجهات عقلية أو وجدانية معينة استناداً إلى وجود أسوار أو عدم وجود أسوار حول الحدائق التى يقيمها المؤمنون به . . فالأسوار لا تقام بأوامر الدين . . ولا تهدم بأوامره كما أنها ليست ظاهرة عامة شائعة فى كل الحدائق التى يملكها أتباع دين معين دون سائر الأديان . . والمنهج العلمى الموضوعى المنصف يستند إلى نصوص الكتب التى يؤمن بها أهل الدين لكى يستخلص منها توجهاتهم العقلية والاجتماعية والأخلاقية . . وهو يرفض « الرمز » والتفسيرات الرمزية فى وجود النصوص الدينية ، والتعاليم النبوية ، والعالم الحق لا يحكم على الإسلام من خلال الحدائق أو الأسوار التى تحوط بها . . وإنما من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والناقد العلمى لا ينسب إلى المسيحية والمسيحيين اتجاها فكريا أو أخلاقياً استناداً إلى تفسيرات رمزية

لجدران بيوتهم أو أسوار بساتينهم .. بل إلى نصوص كتابهم وتعاليم كنائسهم التى يعترفون بها ،ويعملون بها ، وهكذا الشأن فى سائر الأديان والفلسفات والنحل .

●● وفى ضوء هذه الحقائق يبدو « ماسينيون » عارياً من الأسانيد العلمية ، ويظهر فى ثوبه الحقيقى كرجل « بروباجاندا » يوظف كفايته الأدبية فى خدمة الاستعمار الفرنسى .. وقد كان بالفعل يعمل موظفاً فى وزارة المستعمرات الفرنسية .. ومن الجلى أنه اتخذ من الحديقة مدخلاً للتعبير عن حنقه الشديد من ثبات المسلمين على دينهم .. وتأبيهم على الانحلال والذوبان فى خضم الحضارة الأوربية المادية المهاجمة .. فذلك فى ظنه انغلاق وانعزال حال بين الإلحاد الأوربى وبين عقول المسلمين .

● ولو أن « ماسينيون » التزم المنهج العلمى الموضوعى ، ونحى جانباً تفسيراته « الرمزية » ، وتخلى عن الإغراق فى التصوف .. وقد كان من المتيمين به ، ونظر فى آيات القرآن الكريم لوجد الحقيقة بارزة أمام ناظريه .. فالقرآن الكريم يذكر الحديقة وثمارها ليلفت أنظار الخلق إلى عظمة خالقها ، فيقول عز وجل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ، أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[1] ويقول : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[2] ويقول : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3] وأما بناء الأسوار حول الحدائق فمرجعه إلى المصالح التى يقدرها أصحابها ، ولا علاقة لها بأية نصوص من أى نوع كان ؟!

---

(١) النمل : ٦٠ . (٢) عبس : ٢٤ ـ ٣٢ .

(٣) النحل : ٦٧ .

●● والتحرر الذى يتحدث عنه « ماسينيون » له مفهوم خاص فى كل ثقافة إنسانية.. فالتحرر في الإسلام يعنى: البرء من استعباد الإنسان للإنسان، لكى تتحقق عبوديته الكاملة لخالقه سبحانه وتعالى .. وفى الإسلام لا يمكن أن يعد التحلل من القيم الأخلاقية تحرراً أو انطلاقاً.. وإنما هو أحط ضروب العبودية للإنسان.. لأنه يجعله عبداً لشهواته ونزواته وأنانيته.. وها هى ذى أوروبا وأمريكا تنعمان « بالتحرر » من القيم الخلقية والدينية إلى أبعد الحدود.. فهل تحرر الإنسان الأوروبى بحق حرية روحية وعقلية وأخلاقية؟ ألم يقع الإنسان الغربى فريسة لغرائزه وشهواته وأنانيته؟ وألم يقع الإنسان الشيوعى فى عبودية الحزب وعبودية « لينين » ثم « ستالين » و« ماو » وسلسلة الطغاة والجبابرة من زعماء الكتلة الشيوعية؟ وماذا كانت نتائج التحرر والإنطلاق من القيم الدينية؟ ألم يقع الجميع فى قبضة الخمر والمخدرات واللواط و« الإيدز » والجريمة والعنف، والقلق والانتحار؟! وإلى أين يقود العالم « تحرر أوروبا؟ ألم يصبح العالم كله عبداً خاضعاً لجبروت القوة الغاشمة؟! وهل بوسع دولة واحدة اليوم أن تتخذ قراراً دون أن تتساءل أولاً عن موقف أمريكا زعيمة الاستكبار فى العالم؟!.

● إن أحرار العالم كله مطالبون اليوم بالنضال ضد « التحرر » بهذا المفهوم البغيض!! والعالم الإسلامى يجب أن يسعى بكل طاقاته للخلاص من ذلك « التحرر » اللادينى العلمانى المادى المدمر، ليسترد حريته الحقيقية، بمفهومها الإسلامى الأخلاقى السديد ضارباً عرض الحائط بآراء « ماسينيون » وأمثاله من موظفى المخابرات ووزارات المستعمرات السابقين.

* * *

(٦)
ظاهرة خطرة
الصياغات الجديدة لتراث الإسفاف !!

ظاهرة خطرة
الصياغات الجديدة لتراث الإسفاف

●● لابد أن نفند تعاليم الإسـلام وأن نثير حولها السخرية والاستخفاف !! »

● هذه هى خطة العمل التى اقترحها « بطرس الوقور » فى القرن الثانى عشر لمواجهة الإسلام ، والتى لا تزال تطبق فى أوربا وأمريكا إلى اليوم !

فمنذ ذلك التاريخ لم تنقطع السخرية بالقرآن الكريم ، ولم يتوقف الاستخفاف بنبى الإسلام ، وبُذِلَتْ المحاولات بلا انقطاع لتصوير محمد - ﷺ - على أنه المسيح الدجال ، والنبى الكذاب ، ومؤسس أشنع فرقة دينية فى تاريخ المسيحية ! وقد لاحظ بعض كتاب الغرب المعاصرين أنه من بين عظماء العالم أجمعين لم تشوه سيرة كما شُوِهتْ سيرة رسول الله ، ولم يؤذ أحدٌ كما أوذى . . . وهى ملاحظة صحيحة دون شك !

* * *

●● وولغ الشعر الأوربى أيضًا فى مستنقع السخرية والاستخفاف ، بمختلف اللغات اللاتينية والفرنسية والألمانية والإنجليزية ، فى ملاحم طويلة ، تعدَّتْ آلاف الأبيات ، سبًا فى محمد وشتمًا فى دينه ، وتطاولاً على كتابه !

● وفى النصف الأول من هذا القرن شعر عدد من المؤرخين الأوربيين بالخجل من تراثهم فى الإسفاف والسباب ، ولاح فى الأفق ، من خلال عدد قليل من الدراسات المنصفة كتبوها فى السيرة النبوية ، أن أوربا أخذت تبتعد عن خطة « بطرس الوقور » ، ومماحكات يوحنا الدمشقى ، وإسفاف « أغانى رولان » ، لتدخل عصر البحوث المنهجية والعلمية المحترمة فى السيرة النبوية !

● غير أن عددًا من الظواهر الحديثة يشير إلى أن العقل الأوربى يعانى الآن من انتكاسة علمية !وأن مكنونات القرون من السخائم والأحقاد قد

شَرَعَتْ تتقلب من جديد في أعماق اللاشعور الأوروبي! وجاء «الطفح» الجديد - مثل كتاب «آيات شيطانية» وتهجمات «القس سواجارت الأمريكي» على الإسلام عبر التليفزيون - شاهداً خارجياً محسوساً على تلك التقلبات اللاشعورية الباطنية!

●● وأنا لم أقرأ ذلك «الكتاب» بعدُ، وعلى الرغم من ذلك أستطيع أن أزعم أنه لا يمكن أن يضيف شيئاً جديداً إلى تراث «بطرس الوقور»، وسلسلة الصليبيين المتعصبين الحاقدين على الإسلام، من أمثال: يولوجيوص القرطبي (٧٤٩م) وثيوفانس المعترف (٨١٨م) وبدور باكسوال الإسباني، ومئات المستشرقين المحدثين والمعاصرين الذين أفنوا أعمارهم في سبيل النيل من الإسلام! وأقصى ما يمكن أن يصنعه مؤلفه المرتد عن الإسلام، خريج مدارس التنصير، أن يتخير بعض ذلك التراث، وأن يعيد صياغته في شكل جديد وأسلوب حديث، والإشارات القلية التي نشرت عن مضمون الكتاب تؤكد صحة هذا الاستنتاج!

● وفي حسباني أن الأمر المفيد لنا نحن المسلمين الآن ونحن نواجه تلك الانتكاسة أن نجيب على هذين السؤالين المهمين:

● الأول هو: لماذا كل هذا العداء الأوروبي القديم المتجدد للإسلام؟!

● والثاني هو: كيف نواجه خطة «بطرس الوقور» ونحبط حملات السخرية والاستخفاف؟

●● وللإجابة على السؤال الأول نقول - أولاً - إن أوروبا لا يمكن أن تنسى أن الأمة المسلمة التي وُلدت في جزيرة العرب هي التي ورثت الامبراطورية الرومانية في بلاد الشام، ومصر، وشمال إفريقيا، بل إن هذه الأمة الناشئة، النجيبة، سرعان ما اجتازت البحر إلى أوروبا لتنشىء دولة عظيمة راقية على التراب الأوروبي في الأندلس! وهذه الأمة نفسها هي التي أعادت اجتياز البحر كرة أخرى في العصر الحديث على أيدي العثمانيين في شرق أوروبا، ولم يحدث قط أن وطئت أقدام أخرى أجنبية أرض أوروبا، لا من الهند، ولا من الصين ولا من فارس!! ومرارة التجربة في حلق أوروبا تنبع من أن الغزو الإسلامي يقيم الدول، ويضمن بقاءها قروناً متطاولة، كما

حدث في الأندلس، لأنه ليس مجرد فتح عسكرى، ولكنه اجتياح حضارى وثقافى شامل!

● ونقول فى الجواب – ثانيًا – إن أوروبا قد استطابت النهب والسلب والاستغلال، لشعوب الأرض جميعًا والأمة المسلمة، بعد أن مُزِّقَتْ إربًا إربًا، وامتُصتْ دماؤها، وصارت تابعًا ذليلاً لأوروبا، شَرعتْ تقاتل «بالإسلام!» وببسالة مذهلة، كما حدث فى مصر والسودان والجزائر وسوريا وكما يحدث اليوم فى كشمير والشيشان وفلسطين، لتستعيد حريتها وهويتها الإسلامية وتلفظ الاستغلال والتبعية بكل صنوفها، وتسترد وحدتها وقوتها وكرامتها، وتلك كارثة ثقافية واقتصادية وعسكرية بالمقاييس الأوروبية!!

● ونقول – ثالثًا – إن الأوروبيين يرصدون ظواهر عديدة ويفسرونها على أنها غزو إسلامى خطير من نوع جديد! من ذلك مثلاً تكاثر المسلمين فى أوروبا، بسبب تفشى ظاهرة اعتناق الإسلام بين الشعوب الأوروبية، **وفى هذا يقول القس الأمريكى سواجارت: «إن الخطر الذى يهدد الحضارة الغربية الآن ليس هو الشيوعية والاتحاد السوفيتى، وإنما الإسلام هو الذى يغزو بلاد الغرب بصورة مذهلة:** «ثم ذَكَر للمشاهدين الأمريكيين: «أن لندن، عاصمة فكتوريا التى كانت تحكم العالم الإسلامى كله، أصبحت تأوى أنشط مركز إسلامى فى العالم، وأن عدد المراكز الإسلامية فى الولايات المتحدة أصبح يفوق عدد أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى، وعلى حين يتراجع الحزب – الشيوعى – يتزايد عدد المراكز (الإسلامية) وتقوى جموع المسلمين»[1].

● **هذا هو الجواب إذن: إنه الحرص على استمرار تبعيتنا لهم واستغلالهم لنا، وتمزق أمتنا وضعفها، وهو الخوف من الإسلام، كثقافة غازية فى قلب أوربا نفسها: ذلك هو الذى يشعل العداء المتجدد للإسلام!**

* * *

---

(١) انظر المختار الإسلامى: شوّال ١٤٠٨هـ.

●● **الجواب على السؤال الثانى :**

أما كيف نحبط محاولات الاستهزاء بديننا ورسولنا - ﷺ - فذلك يرتهن بإدراكنا الصحيح لطبيعة المعركة المفروضة علينا ، وطبقًا لخطة « بطرس الوقور » ، وأبعادها المكانية والزمانية ؛ وعندئذ سوف نتبين أن رد الفعل الإسلامى الذى حدث ليس كافيًا ، وإجابة السؤال الأول تشير إلى معالم هذا الإدراك السليم .

● لقد ركز المسلمون ، فى ردود أفعالهم ، أفرادًا وحكومات ، على الجزئية الأخيرة ، الراهنة ، من خطة « بطرس الوقور » ، وهى كتاب سلمان رشدى ، ولم يحاولوا مواجهة « الظاهرة العدائية » فى شمولها وامتدادها ، وهذا خطأ ، وقصور ؛ إنه رد فعل مبنى على فهم ناقص مبتور « للفعل » الذى هو ردٌّ له ، فالفعل « ظاهرة » لا مجرد حادثة ، ورد الفعل يجب أن يكون مساويًا له فى القوة ومضادا فى الاتجاه !

●● إن خطة الاستهزاء بقرآننا والسخرية من نبينا تستند إلى الكذب والافتراء والتزييف ، وإحباط هذه الخطة تبعًا لذلك لا بد أن يعتمد على نشر الحقائق ، والوثائق والوقائع ، وتوصيلها إلى ضحايا التزييف من الأوربيين وغير الأوربيين ، **ولو أننا بذلنا الأموال التى رُصدت كجوائز لقتل المرتد سلمان رشدى لتأسيس دار نشر إسلامية فى قلب أوربا ، أو أمريكا أو لبناء جامعة إسلامية فيها ، لكان ذلك أجدى فى تحقيق « القتل العلمى والأدبى » لسلمان رشدى هذا ، ولكل سلمان رشدى آخر يمكن أن يظهر ، ولكان أنفع للإسلام وللدعوة الإسلامية من القتل الفيزيائى له !** إننا يجب أن نشرع فورًا فى السير فى هذا الاتجاه العلمى الرصين ، لأنه هو وحده الذى ينتهى بنا إلى ردع الكذبة ، والمهرجين والمزيفين من المتعصبين الصليبيين ، ويدعم قواعد الإسلام ، فى أوربا وأمريكا ، ويضاعف أعداد المسلمين الجدد من الأوربيين والأمريكيين ، ويثبت للكل أن سلمان رشدى وأمثاله قد ضحكوا على ذقونهم ، واستغلوا تعصبهم ، لكى ينتهبوا الملايين من جيوبهم ، ولم يقدموا إليهم حقائق ، أو يزودوهم بعلم أو تاريخ ، أو سيرة !

● ولدينا بحمد الله الأساتذة المتخصصون القادرون على إنجاز هذه

المهام ، وتقديمها إلى الأوربيين بلغاتهم ، وعلى جميع المستويات ، وبكل أساليب التعبير العلمية والأدبية والفنية .

● ويتحتم على رد الفعل الإسلامى لمخططات السخرية والاستهزاء بالإسلام ، أن يأخذ فى اعتباره معالم الأيديولوجية اللادينية السائدة فى أوربا وأمريكا ، بل يجب أن نستفيد من مبادىء الأيديولوجية ، فبدلاً من إثارة المشاعر الشعبية العدائية ضدنا ، لأننــا نحـاول الحجر على حرية التفكير والتعبير (!!) نستطيع أن نستثمر شعارات تلك الحرية ، ونكتب وننشر رد الفعل الإسلامى فى الداخل والخارج على أوسع نطاق ، **ولا أظن أن بريطانيا سوف تغضب وتحتج إذا ألف روائى مسلم قصــة تحت عنوان : « فكتوريا ملكة الأفيون ! » ، أو : « الملك جورج تاجر الرقيق ! » أو ألف مسرحية تدور حول الدعارة والداعرات ، وأطلق أسماء ملكاتها على العاهرات ! فهو « حر » مثل سلمان رشدى ! وملكات بريطانيـا فى نظر المسلمين أقل شأنًا من أمهات المؤمنين ، أزواج النبى** ﷺ ! وكذلك لن يستطيع أحد أن يدعى ، ساعتئذ ، أننا نتدخل فى الشئون الداخلية لبريطانيا ، أو أننا نمارس العنف أو نهدد حياة المفكرين من رعايا الدول الأخرى !

● ولقد ثارت أوربا كلها دفاعًا عن « الحرية » وزعم الزاعمون أن شتم نبينا وإهانة أمهات المؤمنين لا يعد تدخلاً فى شئوننا الداخلية !! **وبوسعنا أن نستفيد من هذه « القواعد » الأوربية ، فنكتب عن اليهودية والمسيحية وعن التوراة والإنجيل ، وعن القديسين والقسيسين ، بأسلوب « بطرس الوقور » وسلمان رشدى !! ولن يعد ذلك خطأ أو إثمًا ، بل هو فكر وإبداع ، ومن حق كاتبيه أن ينشروه،وأن ينعموا بالحماية والتشجيع !**

ولا ريب أن « روايات » من هذا النوع العجيب ، و « مسرحيات » من هذا الطراز الغريب ، سوف تحقق رواجًا ساحقًا ، كما حقق كتاب سلمان رشدى ، وكما كان يحقق برنامج القس سواجارت ، لأن هواة الإسفاف فى العالم يتعدون الملايين .

●● وهكذا ترتكس الإنسانية ، بفضل الحريات اللادينية ، إلى أسفل الدركات، وتعود القهقرى ، بفضل التعصب العدوانى الأوربى ضد الإسلام ،

إلى قرون خلت ، ويحل السباب محل الحوار ، ويطغى العداء على التقارب ، ويختفى العلم لتبرز الأباطيل ، وتنهزم الموضوعية أمام « البروباجاندا » !

●● وتلك احتمالات خطرة ، تنذر بخسائر فادحة لكل الأطراف ، والسبب هو : « الصياغات الجديدة لتراث الإسفاف » ، فما رأى «الأحرار!» على الجانب الآخر فى هذا الكلام ؟ وما رأى الفاتيكان على وجه التحديد ؟! .

* * *

فهرست الموضوعات

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٨٥٦٩